في سبيل حزبية مثلى

☆



قد يرى عجيباً ان نقرر هنا ان الحزبية ضرورة من الضرورات الاجتماعية ، ولكننـا رغم ذلك مطمئنون الى هذا الرأي موقنون بصحته ، لان الحزب في مفهومنا ليس جمعية تقوم على فكرة اقتنعت افرادها بها كما هو المتبادر . وانما هو جمعية تقوم على فكر المجتمع وحسه المتطورين في حركات تصاعدية ، هذا من وجهة ايجابية . ومن وجهة سلبية ، جمعية تحول بين المجتمع وبين الانتكاس في الفكر والحس . ولكن قد يظن خطأ ان المدارس الصحيحة البرامج تضمن هذه الغاية ، فان من طبيعة هذه المؤسسات مهما تحررت ، انها تكون رتيبة فهي تقوم على الثبات والاطراد فتجمد على شكل خاص وتتخذ صفة خاصة ، وبهذا تفقد القدرة على التشكل تبعاً لتشكل الوقائع وروحها ، فاعدادها لا يكون حيوياً حساساً .

كما ينصرف اعدادها ايضاً على اساس تشكل الفكر وفيه ثبات ، بينما الحزب اعداد على اساس تشكل الحياة والمشاعر « اي الواقع العضوي » وفيها تغيير مستمر وصيرورة دائمة .

وللحزبية ناحية اخرى نُرى مهمـا ضرورية وضرورية جداً ، فان النهضة الحقيقية ليست تشتق الا من الاحساس الجديد للامة ، من الاماني الجديدة لهـا . والاحساس المذكور لا يصبح ذا وزن الا اذا اخذ صفة منطقية ، ليشيع في الناس وليتنقل من كونه احساساً الى كونه منطقاً وفكراً .

ولا يتسنى نقل الاحساس هذا النقل واعطاؤه تلك الصورة العقلية الا بواسطة الحزبية المثلى ، التي يكون لها عملان :

١ – بلورة الاحساس حتى يغدو منطقاً وفكراً .

٢ – بث هذا المنطق وهذا الفكر في جمهور الناس واعدادهم به اعداداً كاملاً ، حتى يصبحا فكراً عاماً في درجة بالغة من الوعي . . .

ولكن هل عرف العرب الحزبية الصحيحة ؟

بين امس واليوم ، اقول نعم واقول لا . . فان العرب قبل الحرب العامة الماضية في سنة ١٩١٤ ، كانوا اكثر وجداناً بقضيتهم فقد كانت تربط بينهم رابطة عقلية واخرى شعورية ويجمعهم منطق ، ولهذه الرابطة نتيجة واحدة : هي ان تتولد بينهم حزبية صحيحة مخلصة ، حزبية خلاقة نافعة .

فان الحزبية المسبوقة بالتفهم تكون مؤثراً نشوئياً ، وجديرة بكفالة المجتمع ورعايته والاضطلاع باعبائه ، لانها هضمت قضيتهـا واستوى ايمانها . وهي اذا لم تسبق بهذا التفهم وهذا الايمان ، فهي حزبية شوارع وحزبية منافسات ومناسبات ، وهي على مختلف اشكالها حزبية من النوع الرخيص او الخائن ، وتكون دائماً مؤثراً انحلالياً في الحقل الاجتماعي ومؤثراً انقراضياً في الحقل السياسي ، وهي على الدوام اداة للفرد يستثمر بها الكل .

فالعرب قبل الحرب الماضية كانوا كما قلنـا تجمع بينهم جامعة من الفكر والشعور والمنطق ، فتمت لهم بذلك عناصر التفهم والتحرك للانبعاث ، ولان احزابهم كانت مبنية على هذا التفهم الصحيح بعض الشيء والمتقارب بعض الشيء ، آتت ثمراتها واعدت الثورة .

اما العرب اليوم فقد زاد التأجج بينهم وهذا ما لا ينكر ، ولكن بالتسميم الاجنبي شل الوعي ففقدوا المركز ، وخرجوا بعيـداً عن نقطة الخور في المدار ، مشبهين الاكرة التي اخذتها حركة شديدة قوية جعلتها تفلت من محورها تحت ضغط الحركة ، فتطيش دائرة في الفضاء مرتفعة ومسفة وبين لحظة واخرى ينتظر سقوطها الساحق وهمود حركتها التام .

عبد الله العلايلي

هل ينقذ الادب الانسانية ؟

بقلم خليل هنداوي

الاستاذ في تجهيز حلب



نهاية كل حرب يفكر الانسان في الوسائل الناجعة لتجنبها ، ويتخذ لذلك ذرائع واسباباً لا تلبث ان تنقض ، وتعود الحرب وويلاتها.

لكن الحربين الاخيرتين علمتانا ان الحرب لم تعد تقف عند موضع شرارتها الاولى ، بل هي موجة اذا اضطربت اضطربت لها كل موجة ، ونار اذا هي شبت في مكان شبت في كل مكان .

فما هو موقف الادب — وهو الدين الثاني للانسانية — من هذه الازمات المتلاحقة ؟ هذا الدين الذي يستطيع ان يقرب الانسان من الانسان ، ويضم امة الى امة .

ان الذي يتأمل في ادب ما قبل هذه الحرب يدرك اي دور مثله على مسارح الامم المختلفة . فادب الامم الديموقراطية يذود عن الديموقراطيه ، ويدافع عن حرية الفرد بما في وسعه ان يدافع . والادب القومي جعل الهاب الشعور القومي غايته ، والادب الانساني الذي يتجرد من كل هذه العوامل ، عوامل الزمان والمكان ، والذي يعانق الانسانية من اقصاها الى اقصاها على اختلاف نزعاتها قد طغت عليه الازمات القومية والاجتماعية التي زادت الهوة — ما بين الامم — اتساعاً ، وهل كان الادب في الدكتاتوريات الا ادباً ضيق الفسحة ، قريب الغاية ، سليب الحرية ، لان اصحابه جعلوا منه وسيلة للدعاية القومية والسياسة القومية ، تهييج ارواح الشعوب بهذه الفقاقيع العاطفية التي ذهب ضحيتها شعوب وبيوت ومدن . معتمدين بذلك ان الادب ذو رسالة قومية قبل كل شيء . ولكن بئست الرسالة القومية القائمة على التناحر والانانية اذا لم تستمد روحها من الرسالة الانسانية .

انا افهم رسالة الادب القومي في توجيه حياة الامة ، واعطائها الحق في انشاء حياة جديدة وتطور جديد ، ولكني لا افهم ان تكون رسالة الادب عسكرية تفرض ارادتها ، ولا عاطفية مجنونة تسيرها انانية عاصفة ، لا تعترف لغيرها بما تعترف لنفسها ، وتتخذ القومية ذريعة الى اثارة شهوة الفتوح وبناء المجد على الدماء والاشلاء.

انني اتقبل من الادب القومي ما لا يخرج عن الادب الانساني ، والادباء الانسانيون انفسهم الذين بشروا بالدعوة الانسانية والادب الانساني هم قوميون قبل ان يكونوا انسانيين . لان الذي لا يتاح له ان يحس آلام شعبه الذي هو من لحمه ودمه ، لجدير به الا يحس آلام الانسانية . وليس معنى هذا انني اسلخ الادب القومي ، وانكر ما لا يمكن انكاره من نوازع وعواطف وميول ، عملت كل ارض على حفرها في نفوس اهليها . ولكن الادب قد يكون قومياً وانسانياً ، وهو صادق بوجهيه ، متحد في غايتيه .

ان هؤلاء الادباء مسئولون الى حد بعيد عن الازمات النفسية في الشعوب وهم لا يقدرون عيشهم — يوم يعيشون — بالقلوب والعواطف ، بينا اولئك العلماء في مخابرهم يكشفون عن اقصى ما خزنته الطبيعة من اسرارها . والطبيعة امست تجود لهم بأكثر مما يطلبون . وتبوح لهم من مكنوناتها بأكثر مما يستبيحون .

ان هؤلاء الادباء — من دون العلماء — مسئولون عن مستقبل الانسانية ، لان القيم الروحية والاجتماعية بأيديهم . اذ ليس من هم العالم ان يوجه ، وانما همه ان يكتشف المادة ولو احرق نفسه بها ، بينما الاديب هو الحارس الامين على هذه القيم الموروثة مع الاجيال.

انني اظن ان الطبيعة تعبث الان كما يعبث الانسان ، لاننا اردناها ان ترقص ، فسترقص ولكن رقصة (شمشون) على نفسها وعلى غيرها معاً وماذا يبقى عند ذلك من جامعاتنا وكتبنا واثارنا . وما عسى يبقى من معالم الحضارة الانسانية التي تسطرت بالعرق ، والدم ، والجهد الموصول ولم يكن عبثاً التفات الشرق الى التعاليم الروحية التي تعمل على تفوق النفس . لانه كان يعتقد ان العقل قائد مغامر ، يدمر تابعه ونفسه معاً . ولم يكن عبثاً حين انقاد الغرب الى عقله الباحث المكتشف ، ينزع الحجب عن وجه الطبيعة ، حجاباً بعد حجاب ولكن ويل للانسان الذي يتقدم بعقله دون روحه . لانه لا يبقي على اثر الروح ولا العقل .

لا يصون الانسانية الا ادب انساني ، شامل ، تهمه سلامة الارض كلها ، لانه يرى الارض كلها منزلاً له . ادب يستمد قوته من هذه القيم الروحية الصافية المجردة من الانانية او العنفوان . ليستطيع ان يضمد الجراح المفتوحة ، ويجفف الدموع المسفوحة ، ويخفي الاطلال الناتجة . فاذا ارادت الانسانية سلامتها وصيانتها او ابدها الخالدة فلتكن في الفة دائمة ، صادقة ، متواصلة ، سامية الخيال ، لان هذه الالفة التي يسخر منها علماء السياسة والتاريخ لاعتقادهم انها خيال مسرف — ، ستكون هي

في الفلسفة الطبيعية العربية

بقلم الدكتور محمد يحيى الهاشمي

☆

يسعى الاخصائيون وراء تحديد ميزة الفلسفة العربية، ففريق ينكر وجودها ويعدهـا صدى ضئيلًا لحكمة اثينا ، تلك الشعلة الهائلة التي انطفأ نورها ظاهراً عند غروب شمس معـارف الاغريق من الاسكندرية . ومنهم من وجد لها ميزة خاصة .

بيد ان اكثر الذين عالجوا الفلسفة العربية لم يلتفتوا الى القسم الطبيعي منها ، فلو فعلوا ذلك لوجدوها قد شقت طريقاً جديداً في فهم الطبيعة لم تطرق للاوائل على بال نعم اقتبس العرب قانون فهم الطبيعة من اليونان ، فقد كانوا يترددون في سبر غور الطبيعة بين المذهب الافـلاطوني ، والافلاطوني الحديث ، والمذهب الارسطاطاليسي ، والفيثاغوري والفيثاغوري الحديث وغيره ، ولكن في تقرير سؤال الطبيعة نفسها ، فقد كان القسم الاعظم منهم يعتمد على الخبرة الذاتية ، فمبدأ التجربة ودك الفرضيات والقياسات المنطقية، والسير في تفسير الطبيعة بالطبيعة نفسها، وكشف اسرارها اعتماداً على المشاهدة والاختبار ، فقد كان للعرب فيه فضل كبير .

نعتقد ان اول من اثار قضية فهم الطبيعة على ضوء هذه الفكرة هو الكندي . وقد اكتشف بعض المستشرقين في مكاتب الاستانة عدداً لا يستهان به من المخطوطات التي تبحث عن العلوم الطبيعية لهذا الفيلسوف ، واذا لم تدرس هذه المخطوطات فلا يمكننا اعطاء حكم ينطبق على الواقع عن الفلسفة الطبيعية العربية في منشأها .

لا نكاد نرى فيلسوفاً من الفلاسفة مهما كان شأنه لا يلتفت الى فهم الطبيعة ، فابن سينا في كتـابه الشفاء ، والبيروني في الجماهر في معرفة الجواهر او الصيدنة ، والرازي في رسائله الفلسفية والفارابي في احصاء العلوم ، واخوان الصفاء في رسائلهم القيمة ، حتى ابن طفيل في قصته « حي بن يقظان » وغير ذلك ، كانت جميعاً مباحث قيمة في التأملات الطبيعية . واننا اذا لم ندرس هذه التأملات في منهجها واسلوبها فلا يمكننا ان ندرك حقاً تأثير العرب في الفلسفة الطبيعية ، ودورهم الحق الذي لعبوه على مسرح تاريخ العلوم .

ان القضاء على مبدأ السلطة Autority الذي يُظن أنه بدأ غربياً ، لدى الدراسة الجدية نجد العرب لم يقولوا به فحسب ، بل عملوا به ايضاً . فالكندي كان يخالف ارسطو رغم تقديسه له التقديس العظيم ، نرى ذلك جليـاً في تدقيقه لون السماء (حسب مخطوطة محفوظة في اكسفورد) ، وفي وصفه لتشكل البحـار ومروج الذهب المسعودي) . كان ارسطو يعتقد قياساً على ماء البحر ان الخمر اذا قطر يصير ماء عذباً ، والعرب نقضوا ذلك لان التجربة اوصلتهم الى مخالفة المعلم الاول .

كان ارسطو يعتقد بعدم وجود عقل عند الحيوان غير ان عالماً طبيعياً فذاً واديباً كبيراً كالجاحظ ناقض هذا الرأي واستدل على وجود عقل عنده اعتماداً على المشاهدة الحسية ، فلدى تدقيقه لعالم الطير عرف ان هذا المخلوق الضعيف يستدل بالعقل والمعرفـة والفكر ، وانه يمكن ان يدرب وان اصحابه يعلمون ان المقدمات قد نجحت فيـه . وايد وجود العقل عند الحيوان ما شاهده هذا الفيلسوف الطبيعي في القرود (الثقافة عدد ٢٨٠).

الحقيقة . وما عداها هو الخيال، وينبغي لنداء الروح ان يستجيب لنداء العقل . لان العقل مشى وحده مراحل . وقفز الى ما وراء الحدود . وهو اذا لم تدم به الروح كان شر قائد وشر مطية ، لان جناحيه لم يعطرا الا شواظاً من نار !

وان من حقنا ان نتنبأ – في عصر تحطيم الذره – باشياء كثيرة . وابسط ما نتنبأ به ان هذه الذرة التي لا ترى، والتي هي مصدر الحياة ستكون بداية جديدة لانسانية جديدة ، او نهاية ما بعدها بداية .

من الحق ان الادب والفن سيتحدثان عن الآلام البشرية الكثيرة . سواء في ذلك ادب الهازم والمهزوم . ولكن ليس من الحق ان يكون ذلك وسيلة الى ثأر يراد ، او انتقام يثار ، لان اي ثار ، واي نار ، عاقبتها الدمار .

لقد اصبحت الارض ذرة حقيرة امام العقل ، لكنها ستبقى وعاءه مهما امتد سلطانه . فليختر اما ان يختنق داخلها ، او يخرج منها كالفراشة المجنحة ، تملأ الجو نوراً واشراقاً .

هذا الادب الانساني ينبغي للشرق ان يذيعه مستمداً من تعاليمه السابقة . ليقف من جماح الغرب المعتز بعقله . لان من يرقص حول البركان ، لا يأمن ان يجرفه البركان . وهذا الادب يقوم على محبة للحياة مطلقة ، ومحبة للانسانية بدون تقسيم ... وعندي انه لن يستطيع ان يقر السلام مؤرخ ولا سياسي ... وانما يقره الاديب، والاديب وحده ...

خليل هنداوي

اذا كانت الفلسفة العربية او بالاحرى الاسلامية لا تختلف كثيراً عن فلسفة القرون الوسطى ، او اذا كانت المباحث الجدلية لفلاسفة الغرب في الازمنة المظلمة تفوق فلاسفة المشرق على رأي بعض من اشتغل في تاريخ الفلسفة كويند لبند (راجع الحديث ، كانون الاول ٤٣ ص ٩) ، فان الطبيعية منها او بالاحرى المعارف الايجابية في مبادئها وتطبيقاتها فاقت ما كانت عليه اوروبا . ولم يقرر الغربيون المنهج الواقعي لفهم الكون الا في ازمنة متأخرة جداً .

احسن مصطفى نظيف مؤلف كتاب ابن الهيثم (كشوفه البصرية القاهرة ١٩٤٢) صنعاً في نشره لهذا الاثر القيم ، لانه برهن ان عبقرياً كابن الهيثم هو من جملة الذين كونوا النواة في التحري العصري للطبيعة ، ونجد اسلوبه في التحري لا يختلف عن الاساليب الحديثة لانه يقول : « ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات وتصفح احوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات . . . ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب ، مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج . ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء . . فلعلنا نهتدي بهذا الطريق الى الحق الذي يثلج الصدر ، ونصل بالتدريج والتلطف الى الغاية التي عندها اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم معها مواد الشبهات . . . وما نحن مع جميع ذلك براء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية » ، ويعلق مصطفى نظيف على الجاثه بقوله : « وما أشبه موقف ابن الهيثم في هذا بموقف اساطين علم الطبيعة في اواخر القرن التاسع عشر ، لا سيما الانكليز منهم (مثل تومسون ومكسويل) ، الذين رأوا ان يمثلوا الطبيعة بمثل ميكانيكية ، جعلوها صوراً تبين بالمحسوسات المعاني الخفية التي تنطوي عليها تلك الامور ، او التي تتضمنها البحوث النظرية او المعادلات الرياضية التي تتعلق بها ، وهم يتميزون في تاريخ تطور علوم الطبيعة بمذهبهم هذا ، وليس أليق من ان نسميهم (اصحاب المثل الميكانيكية) وليس من الخطأ ان نجعل ابن الهيثم من ثلتهم ، فهو رأى مثل رأيهم ، ونهج مثل نهجهم » .

من الطبيعي انه لم يتسح لفلاسفة المشرق ان يقضوا على كل الفرضيات التي ورثوها عن الاوائل ، فهنالك كثير من الاعتبارات كانت سبباً لتأخر العلوم ، فبينما نجد مثلاً نظريات طبيعية عند اخوان الصفاء تكاد تكون عصرية نجد بجانبها طلاسم وخرافات . يحدثنا الرازي كذلك عن كره الطبيعة للخلاء (رسائل فلسفية للرازي ، القاهرة ١٩٣٩) ، تلك الفكرة التي كانت مسيطرة على عقول الطبيعيين حتى العصور الاخيرة وامثلة ذلك كثيرة . وما يدرينا لو اننا عشنا بعد الف عام ودرسنا المستوى الفكري القديم لوجدنا فيه كثيراً من الفرضيات المسيطرة على العقول ، فليس في مقدور الانسان ان يتحرر دفعة واحدة ، فالتحرر لا يكون الا تدريجياً ، ففضل حكماء المشرق اذن يكون لكل حكيم مفكر في المساهمة في رفع بعض السلاسل المقيدة للفكر الحر . ويجب ان نلاحظ في هذا الصدد ايضاً ما ادلى به ساطع الحصري في دراساته القيمة عن ابن خلدون (بيروت ، ج ا ، ص ١١) ان من الواجب على من يشتغل في تاريخ العلوم والافكار ان لا يعين عبقرية ما من خلال الآراء الصائبة والخاطئة المنبثة في المؤلفات القديمة قياساً على العصر الحاضر ، بل بتقرير الآراء المبتكرة التي يسمو بها ذلك المفكر القديم على معاصريه ، والحقائق الجديدة المكتشفة التي افضت الى تقدم الافكار والعلوم .

جرياً على هذه القاعدة ، فللفلسفة الطبيعية العربية فضل كبير في توسيع المعارف البشرية ونكتفي في هذا المقال بالالماع الى اهم رسالة قامت بها الا وهي فتح آفاق جديدة في البحث ، وفي تقرير المذهب الذي سار عليه باكون من بعد ، ذلك الفيلسوف الذي يعد اول من بين الطريقة المثلى في الاعتماد على المشاهدات وجمعها وترتيبها ، وهذا الاستقراء يعد من اهم الدعائم التي يقوم عليها العلم الحديث .

ويذهب مصطفى نظيف ابعد من ذلك باعتقاده ان باكون قد غالى في اسلوبه ، حتى جعل الباحث آلة صماء ، ولم يقم هو بنفسه في تطبيق منهجه عملياً ، فابن الهيثم في نظر مدققنا قد اضاف على ما قرره باكون القياس والتمثيل ، فلم يسبق ذلك الفيلسوف بسبع قرون فحسب ، بل سما عليه ، وكان اوسع افقاً واعمق تفكيراً .

فالفلسفة الطبيعية العربية لما بيناه في كلمتنا المقتضبة تستحق الدراسة ، ويقول اسكندر فون هومبولدت في كتاب له عن الكون الكبير Kosmos ما يلي :

« العرب ، ذلك الشعب السامي القديم الذي اباد قسماً من البربرية التي زعزعت اوروبا مدة قرنين بسبب هجوم الاقوام عليها ، يرجعون بمعارفهم الى ينابيع الفلسفة اليونانية الخالدة ، ولكنهم لم يحفظوا تلك الحضارة العلمية فحسب ، بل وسعوها وفتحوا للبحث في الطبيعة طرقاً جديدة » .

حلب محمد يحيى الهاشمي

ليلة

اصلاح الاسير

« ايها الطيب الاسود »

« يا ليلة الاطياف!... »

« اعطني هبة العمر... »

« هبي لي حلماً ... »

فرلين

★

يا رواق الاحلام ، عد بي الى مغنـاك ، الف الرغاب نهم الايادي
اتملى في عرسك اللذ وجهاً غض عنه النوال دون المراد
جاع بي وجده ، وباحت خميلاتٌ بما لم يكن حوالى « المعادي »
عصرتني السنون والشوق بعضي والهوى سرحتي وجلى تلادي
والملذات عاصفات كأن العرق في كرّهـا لقدح زناد
فاذا هوّم الخريف توارت همهـا والربيع في ميعاد
يا اشقراء تستبيح غمـار الضمة البكر من ذراعي مناد
ثائر طي صدرها الخافق الهـادر في غصة ، ووثبـة صاد
في مهاوي الاغوار في خلجـات الذات منها وفي ليان الجماد
نهلة كوثرية شع فيهـا ريّ ظمآن كان في الزهاد
جبهة مثلها السماء تعرّت عن ربيع يلهو مع الروّاد
ودرت نسمةٌ ومالت قيان الشهب تشكو الحرمان من فضل زاد
طوفي ايها الطيوب ، وبوحي واسكبي الطل في الورود الصلاد
ليلتي – والضحى بقلبي – شراع في بحـار خضيبة الازباد
اطلعت عالماً تجنح بالاطياف... رؤيا تمتد اي امتداد
تغمر الارض ليلتي بالذراعين وتنهدّ في جوىً وتمـاد

ما لهـا قربت من الثغر ثغراً الف ثغر لها على ارفـاد
وتهاوت نجومها ... جن سكر الليل... ساق براه عمق الوداد
فيه من يقظة العناقيد في الفجر ... وفيه من انتظار الغوادي
الدوالي نجواه.. للكأس... للندمان... اما عدت عليه العوادي
رقّ الدنّ واستراح .. حاول الدن فيه ونشوة العبّاد
واطلت شقراء... في ميسة العاج ... فهلت اطياف حلم شواد
عالم يحتويه غمر ... ويملو الصوت سحراً . ويحيي كل بادي
في الفراغ السحيق لحن تعالى جسّد الطيف في مدى الانشاد
عبقرٌ ههنـا ورونق قدسٍ مهرجانٌ يحدوه بالحسن حادِ

•

اقبلي اقبلي ... مراحك دنيا من ظنونٍ... وكوة من فؤادي
دوننا ههنا ابتداء يظل الدهر من امره سليب الرقـاد
في انفراد نبني من الليل حلماً للصبـابات اروع الانفراد
يخطر الشوك في دجاه مع اللحن... مماح فوق الاذى والحصاد
انا فيه ساقٍ... نداماي اطياف... ومرمى يدي ثغورٌ صواد
كلما رنح السهاد الندامى أذن الليل للهوى بالسهـاد

•

وانقضى دوننا الهزيع وهمت ديمةٌ وانتشى رداء السواد
مات همس الاوتار فالارض ارض هدهدتها كف الشعاع الجواد
وغصون في عرية تتلاقى اي هون لهـا واي ابتراد
نهلت ماءها نسمات صيف تركت عودها اضطراب حداد
والذرى في تلفتٍ تسأل النبع عن السفح ... عن منىً في ابتعاد
وصباح يمضي بلون المساء الجهم ... خلّى الضياء خلف الرمـاد
اتراها .. جنازةٌ... أم تراها الارض امست على حدود المفـاد

•

وغداً نلتقي .. ومن للعشايا غير ثغرين يخضلان بلادي
نلتقي نلتقي ووجهك في وجهي . وحصد القتاد للحساد .
فاضحكي يا ذرى . ويا بحر صفق .. سكر الدن بالغد المتمردي ..

صلاح الاسير

احـــلام الهستريا

بقلم الدكتور نقولا فياض

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

٭

اذا قلبنا صفحات التاريخ فيما يتعلق بقديم الدعاوى التي كانت تقام على « السحرة والمشيطنين » فان من غريب ما يسترعي انتباهنا قوة الملاحظة وفرط الاهتمام بالحقيقة والعناية الكبرى التي كان يبديها قضاة محاكم التفتيش لذلك العهد في سرد الوقائع بالتفصيل وتقييد كل شاردة منهـا .

ولا غرو اذا بلغ اهتمام اولئك الرجال الذين سودت فظائعهم صحائف الماضي هذا الحد من الدقة والتنظيم في ذكر الحوادث على نزاهة المقصد وحسن النية فقد كانوا يعتقدون انهم يحاربون الشيطان عدو البشر الازلي .

وجميع الحوادث التي مرّت على السالبتريار وكانت موضوع الدرس والاستقصاء العلمي وجدوهـا فيما بعد واردة في تلك الدعاوى بكل حذافيرها فكأن اولئك القضاة كتبوا من غير ان يدروا تاريخاً شاملاً للاعراض العصبية كما كانت ولا تزال دون ان يتبدل فيها شيء سوى معالجتها فنـاب الرفق عن التعذيب واستعيض عن اللهيب بالماء الصبيب .

لقد ذكر « جيل دلاتوريت » في كتابه الجامع لهذه العبر التاريخية حادثة سانت تريز واحلامها وغيبوبتها وقد اجمع الاطباء على احترام هذه القديسة حتى ان « شاركو » نفسه وصفها بالعبقرية الدقة التي اظهرتها في تحليل دائها حتى ادخلتنا الى هيكل اسراره

ولكنهم اي الاطباء لم يقفوا عند هـذا التحفظ في درسهم حياة قديسة اخرى هي رئيسة دير الارسولاين في لودون فقـد كانت العفة والخوف على العفة الشغل الشاغل لهذه المرأة المريضة فاذا نابها العارض العصبي رافقه احلام غريبة كزيارة الدوق بوفور الجميل الطلعة في صورة ملاك او زيارة الشيطان فيهزها هزاً عنيفاً ويحاول اغراءها بشتى الوسائل وافظعها كما تقول ثم يقنعها انها حامل .

وقـد أثارت قصصها ضجة عظيمة حتى اضطر لوباردون سكرتير رشيليو الى التدخل فقدم بهـا بياناً ضافياً الى معلمه وحكم عليها كما حكم على الكاهن غرانديه بالنار لانـه تجلى لها في الرؤيا .

وكم من الذين حكم عليهم على هذه الطريقة ولا ذنب لهم سوى اضغاث الاحلام ولا سيما النساء . فهذه ترى الشيطان آتياً اليها في صورة أيّل فيضرب برأسها الجدار ثم يطرحها أرضاً ويهشمها وتلك تظهر على بدنها بقعاً سوداء من جراء لطم الشيطان لها بذنب من حديد كلما بدا منها تمنع وعصيان .

لقد اظهرت تعاليم السالبتريار ان هذه الحوادث من اعراض الهستريا وهذيانهـا وسواء اجاء هذا الهذيان عقب حلم ام نوبة عصبية فانه يدل على ما كان يشغل ذلك العصر بالاكثر وهو تدخل الشيطان في كل كبيرة او صغيرة حتى ان بطلان الاحساس الجلدي في ناحية من الجسم الذي نسميه اليوم الفلاجة او الخدر الموضعي وكان يطلق

٭ راجع العدد العاشر، شهر تشرين اول ١٩٦٥ الصفحة ٥ من الاديب

عليه اسم خاتم الشيطان ولم تتبدل الاعراض اي تبدل فاضغاث الاحلام في عهد لويس الثالث عشر وَرشليو كما في عهد شاركو والسالبتريار هي هي لا تزال تترك في البدن اثاراً شاهدة على ضغط انامل الشيطان .

وفضل العلم انه فتح باباً جديداً ندخل منه الى درس التاريخ على ضوء الحقائق الطبية فيخلع نوراً جديداً على بواطن النفوس، نفوس اولئك المرضى وجلاديهم .

لقد كان الشيطان يزعج بخطاياه النساء المهسترات ولا سيما المتدينات منهن فكانت اعصابهن سريعة التأثر وزاد في ذلك حياتهن المشتركة فسرعان ما كانت العدوى تسري من الواحدة الى الاخرى. وجاء التبجح الذي هو من صفات المهسترين ضغثاً على ابالة فكن يتهمن انفسهن في حالة الهذيان، بصداقة العفاريت ويفاخرن بالجحيم فانى النجاة من القصاص وكيف لا يعاقب بالنار هؤلاء الناس اعوان الشيطان .

وقد مر بنا ان قضاة التفتيش كانوا يقيدون بدقة كل ما يروى لهم عن تلك الحوادث فاذا كانوا قساة القلوب فقد كانوا يعملون حسبما يوحي اليهم الضمير مقتنعين بقداسة مهمتهم في طردهم الشيطان عدو البشر وتطهير الارض منه .

وقد وصمهم المؤرخون والشعراء بالعار الا ان العلم ينزع عنهم هذه الوصمة لانه لم يكن في مقدورهم ان يصنعوا غير ما صنعوه

ومهما يكن فان هذه الاخطاء اصبحت نادرة اليوم وآخر ما جرى من هذا القبيل حادثتان ليس العهد بهما ببعيد الاولى اوردها الاسقف دي سكور في كتيب له اراد به تخويف الناس من الشيطان وتحرير الخبر ان شاباً من الاتقياء الصالحين زاره ابليس ليلاً فنهض صباح الغد وعلى كتفه بقع مكمدة من ملامسة الشيطان له وادعى بعضهم ان ذلك من مخترعات الاسقف جاء به لدعم حجته على ان صحتها ممكنة لان اختبارات شاركو في السالبتريار تؤيد حصول مثل هذه الرضوض في الجسم عند المهسترين إبان احلامهم .

والثانية صورة طبق الاصل لما جرى مع رئيسة دير الاورسولين والكاهن غرانديه سنة ١٦٣٤ وذلك انه في عام ١٨٣٤ كانت ابنة الجنرال . . نائمة فاستيقظت على صوت تكسر زجاج النافذة فأزاحت الستار ورأت على ضوء القمر يداً تمتد الى زلاج النافذة ثم دخل شاب عرفته حالا فاحتمت بالكرسي ولكنه هجم عليها قائلا جئت لانتقم وطرحها أرضاً ونزع عنها القميص واخذ يضربها ضرباً مبرحاً ثم طعنها بالسكين في فخذها فصاحت من الالم واستيقظت الخادمة في الغرفة المجاورة ولكنها لم تر شيئاً ولم تسمع سوى تنهدات الفتاة في حالة العارض العصبي .

والظاهر ان الضربات لم تكن شديدة اذ شوهدت الفتاة في حفلة راقصة بعد يومين من الحادث اما الشاب فحكم عليه بالحبس عشر سنوات قضاها في سجن كارفو وبعد خروجه منه ظهرت براءته لانه تبين للقضاة انه في تلك الليلة المشئومة كان عند عشيقة له متزوجة وانما خوف الفضيحة منعه من الاقرار فثبتت عليه التهمة .

تلك حوادث قديمة لم يبق من سبيل الى مثلها اليوم وكلها تدل على ان تعاليم شاركو في السالبتريار لم تخدم العلم فقط بل القضاء بها .

ولا شيء احفل بالطرف من تاريخ الفكر البشري في علاقته مع المجهول وهو كالعسيف يتحسس في الظلمة ولا هادي له سوى نور ضئيل يجود به عليه عقله المسكين . وقد طرق الاستاذ بيتر هذا الباب في سياق حديثه عن الهستريا فذكر عند كلامه عن التنويم ما قاساه الانسان من الشكوك وحاربه من الاوهام في سبيل الوصول الى الحقيقة واماطة اللثام عن الاسرار الكونية التي تكتنف حياته القصيرة على الارض وعليه فسيكون حديثنا الآتي في هذا الموضوع .

نقولا فياض

ليلى

☆

ليلى وما ليلى سوى ياقوتة و« فريدة » بين اللآلى أمها
تخذ الزمرد لحظها وطناً له والفتك بالالحاظ ليس يهمها
كالوردة العذراء قبلها الندى عند الصباح وما تفتح كمها
تبدو على قرب المزار بعيدة فيباح منظرها ويمنع شمها

نقولا فياض

عادة الهم .. كيف نحطمها ؟

بقلم داي كارنيجي

● ان انارة مصباح خير من لعن الظلام ●

☆

يزعم جيم بايردسال انه كان منذ اربع عشرة سنة اول مهموم في مؤسسة « بوليتكنيك » في فرجينيا حيث كان يتلقى علومه في الهندسة الصناعية ، وهو اليوم مفتش اول لشركة « مولر » في مدينة جورسي ، من ولاية نيوجرسي .

قال لي جيم : حين كنت طالباً في مؤسسة « البوليتكنيك » في فرجينيا كان الهم ينتابني بعنف وقسوة حتى يوقعني مريضاً . والواقع اني كنت مريضاً في كثير من الاحيان ، فاضطررت ان احجز لنفسي سريراً دائماً في غرفة المرضى بالكلية ... وعندما تلمحني الممرضة متجهاً الى غرفة المرضى تسرع وتقدم لي مخدراً ، وكنت اهتم من كل شيء ، وقد انسى احياناً الشيء الذي انتابني الهم لاجله !

كنت اهتم من الخوف من ان اطرد من الكلية ، فان درجاتي كانت منخفضة ، وقد رسبت في امتحان الفيزياء وفي غيره من الموضوعات ايضاً ، وكنت اهتم من هذا المعدل الوسطي الذي يتراوح بين الـ ٧٥-٨٤ والذي كان عليّ ان احتفظ به لأنجح . وانتابني الغم من اجل صحتي فقد اصابتني آلام مبرحة من عسر الهضم الحاد . وقلقت من أرقي المستمر ، وتضايقت من احوالي المالية ، وشعرت بانقباض مرير لانني لم يكن في وسعي ان ابتاع لصديقتي حلويات او ان اصحبها الى صالات الرقص كما رغبت ان افعل احياناً . وكثرت همومي من فزع اصابني من ان تتزوج من غيري من المتقدمين لطلب يدها .

وعندما سدت همومي في وجهي السبل ويئست من نفسي ، التجأت الى الاستاذ « بايرد » استاذ ادارة الابحاث في الكلية ، وقضيت معه خمس عشرة دقيقة فقط ، ولكنها ساهمت ، الى حد بعيد ، في تحسين صحتي ، واستعادة سعادتي اكثر من اربعة اعوام مكثتها في الكلية .

قال لي : ينبغي لك يا جيم ان تجلس وتجابه الواقع والحقائق ، فلو وقفت نصف ما تبذله من جهد ووقت في همك الذي اثارته مشاكلك ، لحل هذه المشاكل ، لما اصابك هم . ان الهم عادة رذيلة تعلمتها ، وقد زودني قبل ان اغادر مكتبه بهذه القواعد الثلاث لتحطيم عادة الهم :

اولاً : فتش بدقة عن الامر الذي انت مهموم لاجله .

ثانياً : ابحث عن سبب هذا الامر .

ثالثاً : وفي الحال ، اعمل شيئاً مفيداً لحل هذه القضية .

وبعد هذه المقابلة ، قمت بشيء بسيط من التصميم البناني ، وبدلاً من ان اهم نفسي لانني اخفقت في امتحان الفيزياء تساءلت : لماذا اخفقت ؟ وادركت ان ذلك لم يكن لاني غبي ، فقد كنت رئيس التحرير في مجلة الفن الهندسي في فرجينيا ، ولكني اخفقت بالفيزياء لاني لا احس بلذة ومتعة نحو هذه المادة ، ولم احاول ان انسجم معها لانني لم اكن ادرك كيف تستطيع هذه المادة ان تساعدني في عملي العتيد . اما الان فقد غيرت وقفي ، قلت لنفسي : اذا كان اولو الامر في الكلية قد طلبوا شرطاً لنجاحي ان انجح في الفيزياء ، قبل ان انال رتبة علمية فكيف يجوز لي ان اناقش حكمتهم ، ولهذا سجلت اسمي في صف الفيزياء ... وقد نجحت هذه المرة لانني درستها بانتباه وامعان بدلاً من ان اضيع وقتي بالتندم والهم لصعوبتها .

وحللت مشاكلي المالية بان اضفت اعمالا فوق اعمالي ، كالبيع في الكلية ، وبان اقترضت من والدي مالاً رددته اليه بعد تخرجي من الكلية .

ووضعت حداً لهموم حبي بان شرحت للفتاة التي احب مخاوفي

من ان تتزوج غيري وهي الان قرينة جيم بايردسال ، اي قرينتي انا . . .

وعندما اعود بالذاكرة الى كل هذه الامور اجد ان مشاكلي لم تكن الا اضطراباً وقلقاً ، والا نفوراً من ان اكلف نفسي مشقة مجابهة اسباب هذه الهموم .

ان جورج هوكس الذي تقلد عمادة كلية كولومبيا تباحث مع مئتي الف شخص جاؤوا اليه بهمومهم ، وكان همهم الرئيسي الاضطراب . وفي ذلك يقول العميد ، ان نصف هموم الدنيا سببها ان الناس يحاولون ان يتخذوا قرارات قبل ان يكون لديهم علم كاف يبنون عليه قراراتهم ، ولو حاول رجل ان يخصص نصف وقته ليبحث عن الحقائق التي تتصل بمشكلته فان همومه تتبخر عادة على ضوء المعرفة . يقول الصينيون : خير لك ان تنير مصباحاً من ان تلعن الظلام » .

ان هذا ولا ريب افضل ، ولكنه اصعب ، ان اضاءة المصباح تطلب جهداً وتنظيماً وتفكيراً . . . وهذا ما يضايق كثيراً من الناس كما تضايقهم حمى ضيق النفس .

لم يكتشف توماس اديسون ان اكثر الناس لا ينشطون ولا يتحمسون للتفكير ، بل اكتشف ايضاً ان ذلك كاد يجرهم الى اليأس : وهذه الفكرة دفعت اديسون الى ان يعلق في مختبره اثني عشرة صورة تكاد تنطق بصدق رأي السيد « هونشا رينولدس » الذي يقول : لا يعدم المرء وسيلة يلجأ اليها ليتجنب العناء الذي يرافق التفكير عادة . . »

ان كثيراً من الناس يتجاهلون بالهم بدلاً من ان يحللوا بهدوء ووضوح ، مشاكله ثم ليجدوا حلاً لها .

والرجل الذي يرغب في ان ينجح في عمله ينبغي له ان يضيء المصابيح ، لا ان يشتم الظلام . . وان لم يفعل فانه سيفيق في صباح جميل فيجد قروحاً دامية في معدته . . .

امامي الآن ، وانا اكتب هذا المقال ، رسالة من دان وبراد ستريت ، جاء فيها : « ان ٦٥ بالمئة من المشاريع العملية ، لا تبلغ اليوم السادس من ولادتها ، ولماذا ؟ لان اصحابها ، على الغالب ، عملوا دون ان يكون لديهم كل الحقائق عن هذا العمل .

قال لي وليم جيفرس رئيس اتحاد سكة الحديد الباسيفكية ، انه لم يقلق ابداً لانه كان دائماً منهمكاً في جمع الحقائق ، وقد جابه الاتحاد الذي يرأسه منذ ثلاث سنوات مشكلة معقدة تسبب للكثيرين ارقاً قاتلاً ، فقد كان الاتحاد يخسر عدداً وافراً من زبائنه الذين يشحنون في شاحناته ، ولم يضع جيفرس وقته في الهم والغم بل ارسل بضع مئات من عماله يسألون زبائنه الاول . . . ليعرفوا السر في تفرق هؤلاء الزبائن . . وعندما اجتمعت لدى جيفرس الوقائع ، عمل على الفور : استعجل وسائل الشحن في الاتحاد ، وعوض كثيراً من الاعمال التي خسرها الاتحاد .

لا انت ولا اينشتين تستطيعان ان تفكرا في اي موضوع ، بفهم وادراك الا بعد ان تلكما الحقائق الواقعية التي يجب ان يبنى عليها التفكير والتحليل . وانه لمن العجيب حقاً ان كثيراً من الناس يغامرون بفقدان ما ادخروه في حياتهم في مجازفة لا يعرفون الا اليسير عنها . . وقد لا يعرفون منها شيئاً . . فان والدي ، مثلاً ، اراد ان يستثمر ما ادخره في عمره في مشروعات زراعية ظهرت انها لا جدوى لها فبعض الاراضي كانت موحلة ، والبعض الآخر كان واطئاً ، فطغى عليها النهر تدريجياً ، وسنة بعد سنة ، حتى ادى ذلك الى ضياع محاصيلها . وكانت نتيجة هذا العمل ان ابي ، لم يخسر فقط ما ادخره في حياته ، ولم يخسر فقط عملاً كادحاً مجهداً طوال سبع سنوات ، ولكنه كاد يخسر صحته للهم الذي ملك عليه فكره ونفسه .

فلو كان قد درس حقائق هذا العمل قبل ان يباشره ! . . .

لو كان . . فقط . . . .

كادت « كاري جاكوبس بورن » تدمر نهاية ايامها بهموم جد تافهة ، وهي صاحبة اغنية « نهاية يوم كامل » التي بيعت اكثر من غيرها من الاغاني في العالم .

قيدتها الهموم لانها عملت قبل ان تجمع الادوات اللازمة والحقائق الضرورية . وتتلخص قصة حياتها كما يلي : تركت ارملة مثقلة بالديون ، ومعها ولد صغير تعيله ، فلم تعرف اي طريق تسلك او اي عمل تنهج . . لم تجمع الحقائق حول المشاكل المادية لادارة بيت بالاجرة ، حاولت ان تدير بيتاً من هذا النوع في شيكاغو فأخفقت ، وقبل ان تعرف اية معلومات عن بيع الاغاني ومشاكلها ، باشرت بكتابتها ، وقد اتيح لبعض هذه الاغاني ان تغنى في ارجاء العالم ، كأغنية « احبك صدقاً وحقاً » ، واغنية انا مهموم من اجلك » وكانت تكتب اغانيها على ورق الصر لانها لم تستطع ان تشتري ورق الكتابة ، وكانت تكتب على ضوء المصباح او الشمعة لانه كان ارخص من نفقات ضوء الغاز . وحين عجزت ان تجد داراً من دور النشر تنشر لها اغانيها عمدت الى نشرها بنفسها ، وجربت ان تبيعها من بيت سكنها واتخذت غرفة الطعام مكاناً

للبيع وقبض الدراهم . وارادت ان تعلن عن اغانيها ، ولكن لم يكن ذلك في وسعها فأجر الاعلان في اي مجلة موسيقية امر فوق طاقتها ، فعمدت لخياطة ثياب زوجة الحرر في احدى هذه المجلات لتدفع اجر الاعلان . .

وبيعت اغانيها ببطء اهمها واضناها ولما عجزت عن دفع نفقات المطبعة ، التي بلغت الفاً وخمسمائة دولار تحطمت نفسها وهزات صحتها وضاقت بالحياة ولم تجـد بداً من الفرار الى مصح ، وهي تقول : اني جئت الى هنا لأموت !

وقد سمع احد رجال الاعمال بنكبتها ، وبعد ان جمـع كل المعلومات عن وضعها المهني ، قال لها : انك بعيدة جداً عن الاخفاق يا سيدتي ، ان اغلب المؤسسات تستدين لتبدأ اعمالها ، امـا انت فقد بدأت وليس لديك شيء . . . وانت تسيرين في عملك سيراً حسناً ، وارجو ان تقبلي بان ادفع « فاتورة » الطابع على ان تقدمي لي عشراً فائدة عن عملك » .

حملقت « كاري جابوكس يوند » دهشة متعجبة ، وضاء وجهها شجاعة واملا .

جاءت المصح لتختم حياتها . . ولكنها الان ، وقـد اصبح لديها كل حقائق العمل ، مندفعة لتعيش .

باعت هذا الرجل عشراً فائدة عن اعمالها ، وكرت راجعة الى شيكاغو بروح جديدة وشجاعة جديدة ، وبدأت العمل .

في السنة الاولى التي تلت هذا الانقلاب ربحت ربحاً اتاح لها ان تدفع للرجل خمساً وتسعين بالمئة مما دفعه في بداءة عملها .

ان ما كان يعوزها هو الايمان والشجاعة ، وقد حصلت عليهما حين حصلت على الحقائق .

اخبرني « ايون شيمكن » المدير العام لاحدى دور النشر في نيويورك ، انه يقضي نصف نهار ، منذ خمسة عشر عاماً لمساعدة المهمومين من اعضاء مكتبه ليحلوا مشاكلهم . واخيراً دبر وسيلة استطاع بها ان يختصر الوقت الذي كان يحتاجه الى ثلثه . .

ان هذا امر كالسحر . . وانه السحر ! . . .

واليك الوسيلة التي اتبعها :

اولاً — عدل حالاً عن الطريقة التي استعملها في محاضراته منذ خمسة عشر عاماً ، هذه الطريقة التي ابتدأت مـع مساعديه المضطربين الذين تعودوا ان يسمعوه كل التفاصيل عن الاعمال التي سارت سيراً خاطئاً ، ثم انتهت الطريقة بسؤالهم : ماذا يجب ان نصنع ؟

ثانياً — وضع شيمكن نظاماً جديداً يقضي على كل واحد يريد ان يعرض له مشكلة ، ان يعد مذكرة تجيب على الاسئلة التالية :

١ — ما هي المشكلة :

٢ — ما هي الحقائق التي تدور حولها ؟

٣ — ما هي الحلول الممكنة ؟

٤ — اي حل منها توصي به ؟

وهكذا وجد مساعدو السيد شيمكن انفسهم تجاه الحقائق كلها ، فاذا ارادوا ان يجيبوا على الاسئلة فسيبحثون عن هـذه الحقائق وسيدرسونها بامعان وكانت النتيجة تلك التي ينتظر ان تكون . . .

بعد ان جمع مساعدوه الحقائق وعملوا بكل تفكير وامعان في مشاكلهم وجدوا ان في ثلاثة ارباع الحوادث لا يضطرون الى الرجوع الى عميدهم السيد شيمكن ، لان الحل الملائم قـد بدا سريعاً وواضحاً . . وحتى في بعض المسائل التي كان يجب عليهم ان يستشيروا بها السيد شيمكن . فان النقاش معه عنها اقتضى ثلث الوقت الذي كان يقتضيه قبلاً . . لان اعمالهم سارت سيراً مرتباً منطقياً يقود حتماً الى نتيجة معقولة .

والآن ينفق السيد شيمكن في دار النشر هذه اقل وقته في الهم والكلام عن الاخطاء ، واكثره في العمل والاصلاح .

وانتم يا حكماء الصين القدامى قد وضعتم حكمة خالدة حقاً في قولكم الخالد :

« ان انارة مصباح خير من لعن الظلام » .

« عن الانكليزية »

من وحي لبنان

☆

ما الذي تنبته هذي الربى   من بديع وعجيب في النبات
ما الذي تبديه من زيناتها   وحلاها في بنيها والبنات

الى لبنانية

هذه سوسنة آنسة   لونها الصافي شفاء للاوام
ملمح الخضرة في نظرتها   فاتن من أين يأتي بالضرام

ما احب العقل والشكل اذا   مزجا حسنيهما في القسمات
آية الآيات خود حرة   نفسها في وجهها ذات سمات

•

البرقع

اذا بدت حسناء في برقع   لم يحجب البرقع منها الشعاع
اما التي أمنها ربها   ان تفتن الناس ففيم القناع

•

فتاة لبنانية الاب واجنبية الام

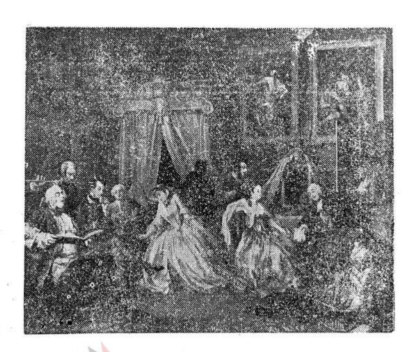
جمالك زاد روعته مزاج الشرق والغرب
وزانت فتنة الافرنج فيه عفة العُرب

•

حسناء وتجيد الغناء

الك يا مي ان تتيهي كما شئت ولكن ترفقي في الدلال
ما الذي تحمل القلوب وقد زدت بسحر الغناء سحر الجمال

محمد ولد   خليل مطران



الزواج المصري

الفن الانكليزي في القرن الثامن عشر

بقلم مصطفى فروخ

أستاذ الرسم في جامعة بيروت الاميركية

النقد

طلب الي صديقي رئيس التحرير كتابة بحث في تاريخ فن التصوير ففكرت كثيراً ليس لصعوبة الموضوع بل لغرابة بحث الفن في مثل هـذا الجو الضاغط الذي اعيشه اليوم وبما يكتنفه من فوضى اجتماعية واخلاقية وسياسية، انه بهد اشبه ما يكون بحالة الدولة الرومانية في آخر ايامها . مجتمع غاية همه اقامة الولائم العامرة والموائد الخضراء والتسابق في مجال الكذب والتبجح بالتافه من الامور . فاين نحن بعد كل هذا من التحدث عن الفن ؟

ولكن الصديق ، وهو شاب ، والشباب طبعاً قوي الايمان ، ابى الا الكلام عن الفن ، فـلا حول ولا قوة الا بالله ...

يوم بلغت حضارة الفكر الانساني ذروتها في « البرناس » عبد الناس الجمال والخير من الفنون الجميلة، فكان ان حلقوا في اجواء المحبة والخير وسعدوا بالحياة الحقة واليوم ونحن في مدنية المادة التي قدسوها ورفعوهـا فوق الروح والفكر ، قتلت المادة الروح وها هي تتهيأ لقتل الجسد وتطوح بالدنيا ومن فيها .

وقد مر بالعالم زمن كان للفنون فيه مكان مرموق ذلك انها كانت اداة تهذيب واصلاح كما كانت للاعراب عن شتى مشاعرهم ومختلف امانيهم ، ترتاح اليها نفوسهم وتسمو بها عقولهم فتخلق منهم بشراً يهتز للجمال ويتأثر بكل ما يغذي القلب وينير الفكر ويتصل بالشعور الانساني فيلطفه ويدفعه في سبيل الحب والخير والجمال .

هذا كان مفهوم الفن يومذاك، فاعثر واينع،وعطر الاجواء بالروائع الخالدة ، فكان اسمح واذكى ورد لهم الكيل كيلين ، وها هي آثاره تشع ضياء في متاحف العالم

وقد كانت هناك عصور سما بها الفن وارتفع وهو صورة عصره ومرآة صدق له . لذلك بلغ بهـا الفن الذروة ومنهـا القرن الثامن عشر في بريطانيا .

ان الانكليز تأخروا بالنهضة الفنية عن بعض الامم ، ولكن ما لبث ان نهض من بينهم بعض المفكرين نبهوا فيهم هذا التقاعس فقاموا يرفعون اعلام الفنون من ادب

وموسيقى وتصوير ، وما هي غير حقبة من الزمن حتى نبغ بينهم من اشاد للفن بنياناً شامخ الذرى رفيع العماد .

وقد كان الفنان النابغ «هوغارث» اول من اعتمد على بصيرته في ادراك الطبيعة بين فناني الانكليز دون النسخ الذي كان شائعاً بين الذين تقدموه . لانه لم يكن تاجراً بل فناناً حقاً يريد الخير لبلاده . وقد امتاز بانه كان اول رسام وطني نظر الى الحياة الانكليزية بتجرد وانتقدها باخلاص ونظر ثاقب لذلك حبب الفن الى الشعب .

ولد هوغارث سنة ١٦٩٧ من والد معلم مستنير . فلم يعارض في ان ينشأ ابنه فناناً . وصار يواظب على سماع المحاضرات في جمعية الفنون ولكنه مل منها عندما وجد ان الفن فيها مقصور امره على نسخ الصور القديمة وكان يقول : « النسخ اشبه الاشياء بصب الماء من اناء لاناء » وكانت روحه المجددة تود ان تستقي مادتها من الحياة نفسها . وكان هوغارث في فنه ديمقراطياً حراً فهو لم يتبع خطوة النبلاء ولكنه كان يرسم الطبقات المتوسطة والوضيعة ،



الام والولد

•

كالخدم والباعة وافراد اسرته والممثلين وكان يرسمهم على حقيقتهم .

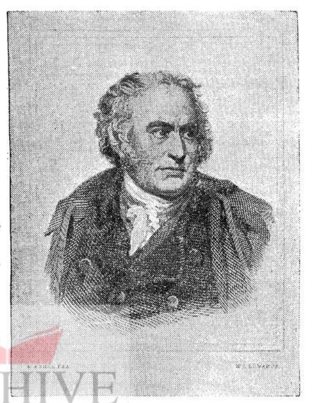
ومن اجمل صوره « بائعة القريدس » . وكان هذا الفنان مصلحاً كبيراً ، كثيراً ما كان يضمن رسومه العظات الاخلاقية ومحاربة الرذائل وله عدة رسوم تسمى « الزواج العصري » اتمها عام ١٧٤٥ ولا تزال معروضة في متحف « تايت » في لندن .

وهذه الصور الانتقادية تهاجم مصير الزواج المبني على المكانة الاجتماعية والفقر من جهة والغنى والجهل من جهة ثانية . وتظهر في الرسم الكونتس التي تنتهي حياتها بأساة وقد جلست تصلح هندامها بينما جلس الى الشمال احد الاغنياء والاغبياء يتناول قدحاً من القهوة ، وبالقرب منه مغن يعزف . وقد تعمد فيها نقد الاخلاق في الاسر الراقية والسخرية مما يتصنعه افرادها من ثقافة وكبرياء .

وكان على الرغم من حسن حالته المادية متواضعاً يكره الابهة والعجرفة شأن الفنان الحق . ويروى انه خرج ذات مرة من مرسمه



الفتاة اماهارت



الفنان رومني

نحو منزله والمطر ينهمر وقد نسي عربته الفاخرة تنتظره فاصابه برد. وقد توفي عام ١٧٦٤ .

ويعد جورج رومني أحد الثلاثة الذين اسسوا نهضة الفن في بريطانيا وهم هوغارت ورينولدز . ولد رومني سنة ١٧٣٤ وقد اهمل تعليمه في الصغر وكان يعاون اباه في دكانه الصغير . فلما كان في مقتبل العمر رأى رساماً جوالاً يرسم الناس ففتنت الشاب (رومني) حياة الفنان الحرة الطلقة فتبعه وشرع يتعلم الرسم . وقد استقر في لندن عندما برع في الفن ، فكثرت ارباحه وتوفر على تأليف الرسوم التاريخية منها : (وفاة الملك داود) و (وفاة ولف) ثم تمكن بما احرزه من ثروة ان يسافر الى ايطاليا ونزل روما حيث اخذ يدرس فناني عصر النهضة .

وكان تصوير الاشخاص قد ذاع بين الناس في ذلك الحين حتى ان الفنان (رينولدز عندما مات بلغت تركته ٨٠٠٠٠ جنيه وبلغ دخل (رومني) ٣٦٣٥ جنيهاً في سنة ١٧٨٥ وهذه ارقام ضخمة اذا عرفنا قيمتها وقتئذ ادركنا قيمة الفن وتقدير الامم الراقية له .

واحسن ما يذكر به (رومني) صورة الفتاة (اماهارت) التي عرفت فيما بعد باللايدي هاملتون والتي عشقها بعد ذلك اللورد نلسون . ولعل تلك الروح التي يلمسها المرء في رسوم النابغة تعود الى حبه العميق للايدي السماوية المتفوقة بين النساء . كما كان يدعوها رومني نفسه . وتظهر الصورة درساً للايدي هاملتون . وقد اتمها في عام ١٧٨٦ وهي معروضة في متحف (تايت) في لندن . ومن رسوم (رومني) الشهيرة صورة (الام والولد) وقد اتمها عام ١٧٧٨ والجدير بالذكر ان (رومني) جسد في هذه اللوحة الرائعة عطف الام وحنانها على رضيعها وهي لوحة تنبض بالحياة وتضج بحنان الامومة مع التأمل البعيد في مستقبل وليدها ومصيره . والامومة موضوع عالجه كبار الفنانين في جميع عصور التاريخ الفني نذكر منهم رافائيل والسيدة فيجه ليبران ، وهذا موضوع وحي والهام للفنان لاسيما ونحن نعلم ان الامومة منبع العواطف الانســانية . فالام هي اقدس شيء يستطيع الفنان ان يعبر عنه ، لانها مصدر الحياة والحنان والعطف .

واخيراً نرى صورة « رومني » نفسه الذي رفع علم الفن مع زمرة من زملائه الفنانين في وطنه بريطانيـا وكان احد العاملين على نشر انواره في ارجاء العالم فاكسب امته فخراً كما انار السبيل امام الناس في كل بقاع الدنيا .

وقد قضى جورج رومني سنة ١٨٠٢ بين ذراعي زوجته وابتسامة الاطمئنان والرضى على ثغره .

واذ نكتب الآن عن هذه الفترة من تاريخ الفن في بريطانيا ، ونهضته بفضل جماعة قدر لها شرف قيادة هذه الحركة المباركة ، نود ان يشع في اجواء لبنان وسائر البلاد العربية التي كانت فيها مضى مبعث وحي فني له اثاره الباقية في كل بقعة وصل اليها العرب ، اجل اننا نأمل ، افراداً وجماعات وحكومات ان نعنى بحياتنا الفنية وبتثقيف ابنائنا ثقافة فنية تقوم بتغذية الروح والاحساس والانسجـام والذوق ، تلك المزايا النبيلة التي هي وحدها مبعث النهضات الصحيحة في كل امة تريد البناء وتتطلع الى مستقبل افضل .

مصطفى فروخ

مصادر الفن في السيكولوجيا الحديثة

بقلم الانسة روز غريب

☆

الفن ظاهرة ترافق الشعب في ادوار فطرته كما في ادوار حضارته لكنها تنمو وترتقي من السذاجة الى التعقيد بالقياس الى رقي الشعب وتعقد حياته وتشعب تفكيره وفلسفته اذ ليس كالفن ظاهرة تتجمع فيها نفسية الشعب في مختلف الوانها وخصائصها وميولها من واضحة وخفية . وعلى هذا كانت الامم العريقة في المدنية كالهند والصين ارقى فنوناً من الامم الاحدث نشأة كاليابان ونحوها . وفي الغرب نلتمس الفن عند الاوروبيين الشعب العريق في الفن قبل ان نلتمسه عند الاميركيين الامة الفتية التي تحاول ان تنشيء لنفسها فناً .

واذا القينا نظرة على الفن الاوروبي الحديث رأيناه يعكس في تعقده وعمقه واتساع آفاقه هذا التطور العجيب الواسع النطاق الذي تطوره الاوروبيون في القرون الاخيرة وقد اثر فيه خصوصاً وقوعه تحت تأثير الفلسفات الجديدة فكان الفن الواقعي نتيجة الفلسفة الواقعية والاجتماعي نتيجة الفلسفة الاجتماعية الجديدة والرمزي تأثر بفلسفة شوبنهاور المتشائمة الشاذة كما كان الفن السيكولوجي في المسرحيات والقصص نتيجة مذهب اللاوعي والتحليل النفسي وغيرهما من فروع السيكولوجيا الحديثة، التي كان فرويد وبرغسن من اكبر زعمائها . ولا يخفى ان السيكولوجيا فرع هام من فروع الفلسفة .

ومن الممتع حقاً ان يطلع الباحث على نماذج الفن الاوروبي الحديث ويردها الى اصولها في الفلسفة وخصوصاً في علم النفس الحديث وهو اكثر فروعها تطوراً في العصر الحاضر فيجد هناك مصادر « الشعر الصافي » و « الحالة الصافية » « والرمز » « والغموض » « والفن العاري » « والفن للفن » « وفوق الواقعية » وغيرها من النظريات الرائجة عند الفنانين المحدثين . لكن ذلك خارج نطاق هذا البحث الذي يقتصر على مصادر الفن في السيكولوجيا الحديثة

ولا بد من الاشارة الى ان علم النفس الذي كان له في الفن ذاته اكبر الاثر قد اثر بنفس المقدار في فلسفة الفن وفي علم الاستاطيقي (فلسفة الجمال) وعلى هذا كان بحثنا في مصادر الفن مبنياً على ذاك الفرع من السيكولوجيا الذي يسمى التحليل النفسي Psychanalyse واهم اساتذته فرويد الذي قال : جميع الاعمال العظيمة تنبع من اللاوعي .

الفن في نظر التحليل النفسي نشاط تحركه عوامل نفسية من نوع الازمات التي تقود البعض الى الاضطرابات العصبية . لكن الفن يخلص صاحبه من هذا الاضطراب . وقد ينشأ من العقد النفسية القائمة في لاوعي الفنان والعقد النفسية عند السيكولوجيين هي الميول والشعائر والاحلام التي يكبتها الانسان او يقهرها ويمنعها من الظهور قسراً وخوفاً او مجاراة للتقاليد والقيود الاجتماعية فتنحدر الى عقله الباطن او دائرة لاوعيه وتبقى هناك في حالة ركود واختزان حتى يحدث ما يحركها او يوقظها فتظهر في احلام الشخص او فلتات لسانه او تصرفات غريبة منه وقد تسوقه في بعض الاحيان الى الاضطرابات العصبية لكنها عند ذوي الطبيعة الفنية تجد لها مصرفاً في الانتاج الفني .

ما هي هذه العقد ? هي على نوعين اولاً عقد اصيلة في النوع الانساني تدخل في اللاوعي المجموعي العام نظير « عقدة اوديب » وهي التي تنشأ من المنافسة القديمة بين الاب والابن وثورة الابن على ابيه ونضاله لاثبات ذاتيته وتعلقه بامه ومنافسة ابيه في حبها — هذه المنافسة التي تدفعه التقاليد في عصور المدنية الى كبتها فتغوص في اعماق لاوعيه . وتلعب هذه العقدة في رأي العلماء دوراً هاماً في الاثار الفنية وقد يشتق منها عقد اخرى بان يتحول التنافس من شكل الى آخر ويصبح تنافساً بين اخوين في حب الام او تعلقاً بالاخت بدلاً من الام فتكون الآثار الفنية المتضمنة صراعاً بين شخصين يحاول فيه احدهما اثبات ذاتيته ، مبنية على عقدة من هذا النوع . وهكذا يحللون قصيدة فكتور هوغو في « الضمير » فيزعمون

انها تتضمن شعوراً لا واعياً بالاثم في وصفها لملاحقة المذنب وانتقام العين منه : شعور بذنب منافسة الاخ في حب الام ، كأن يهدد الفتى باضطراب عصبي لم يتحول هذا الشعور اللاواعي الى فن بواسطة مبدأ التسامي ويزيد الباحث : « ان بطل القصيدة قايين من كبار الموسوسين او مرضى الاعصاب ولم يكن هوغو كذلك ولكن الراجح ان ابطال قصائده هم الذين دفعوا عنه الوسواس بان تحملوه بدلاً منه »

ويقول بفيستر مستنتجاً من دراسة سيكولوجية لبعض اللوحات الفنية : « ان هناك تعبيراً مبرقعاً عن عقد مكبوتة في لاوعي الفنان خصوصاً ادعية بالشر على بعض ذويه . وهذه اللوحات نتيجة الهامات مفاجئة ذات علاقة بانطباع حديث ايقظ العقد وهزها من باب تداعي الافكار ثم اتحد معها بعد ردحة من الحضانة او الاختمار ونشأ من ذلك كله الرؤيا الفنية التي كانت نوعاً من التسامي وبهذه الواسطة اتيح للفنان الذي كان مهدداً بالهبوط الى ظاهرة مرضية من ظواهر الانكماش الذاتي — اتيح له ان يشق لنفسه طريقاً للاتصال بالناس والواقع »

ذكرنا «عقدة اوديب» كعامل في الانتاج الفني وهناك ايضاً عقدة «نرسيس» او عقدة عبادة الذات عند الفنان وقد يشتق هذا الشعور من عقدة اوديب نفسها بمعنى ان الفنان الذي يسيطر على شعوره تعلقه بامه ينفر من كل حب آخر وينطوي على نفسه ويتعامى عن الكون . قال شليجل : « كل شاعر هو نرسيس » اي مغرم بنفسه . ويرى « بودوان » « ان لعبادة الذات عند الفنان ناحيتها المفجعة وهي استحالة الحب عنده لاستحالة خروجه من دائرة نفسه ولو قدر الشعراء على الحب الحقيقي لما تغنوا بالحب على النحو الذي نراه . فهم انما يحبون ذواتهم . وغزلهم هو شوق الى الحب . هو وحشة وانفراد . وقد يظهر عندهم هذا الفراغ في التبرم الدائم والرغبة في السفر وطلب العزلة . »

ويتصل بعقدة نرسيس عقدة حب الظهور فان حب الفنان لذاته يقوده بسهولة الى حب الظهور ولفت النظر وكسب الاعجاب وقد يتسامى عنده هذا الميل الى كتابة الاعترافات او المذكرات يودعها عواطفه وآراءه وذكرياته وتأثراته فكأنه يقيم بذلك لنفسه نصباً او اثراً خالداً . نجد هذه النزعة — عرض الذات — خصوصاً عند الرومنطيقيين الذين يغلب على فنهم العنصر الذاتي امثال روسو وشاتوبريان وموسه .

والغرائز عموماً في حال كبتها تلعب دوراً هاماً في الخلق الفني، ولا سيما الغريزة الجنسية . يقول فرويد : « ان الفن والثقافة لم يتم لهما الظهور الا بواسطة كبت الغرائز وتطورها خلال العصور . وبين الغرائز المكبوتة تلعب غريزة الجنس دوراً رئيسياً فتمر في طور التسامي وتتحول عن غايتها الجنسية الى غايات اجتماعية ثقافية . وليس اخطر على الثقافة من اطلاق الغرائز وارجاعها الى حالاتها الاولى » . (راجع « الخروج من الجنة » لتوفيق الحكيم) .

كل ما ذكرناه من عقد — عقدة اوديب وما يشتق منها ، عقدة نرسيس وما يشتق منها — من نوع العقد الفطرية التي تعد جزءاً من اللاوعي العام او الشعبي ملهم الاساطير او الميثولوجيا عند الشعوب مثلا اسطورة بروميثيوس الاغريقية — التي كانت بدورها مصدر وحي للفنانين خلال العصور — انما هي رمز لعقدة اوديب او الصراع بين الابن والاب ، بين بروميثيوس الثائر وابيه زفس . وهكذا تتصل جذور الفن بادوار الفطرة عند الشعوب والفنان يعيش في بعض ظروف حياته دوراً او ادواراً من حياة الجنس البشري الفطرية والطوطمية ومن هنا تشخيصه للجمادات وللبهائم في آثاره الفنية . وفي احوال اخرى يرينا فنه عودة الى القديم ، الى دور الطفولة او الى الارض التي نشأ فيها ، وحنيناً الى مسقط رأسه ورغبة في التوحد مع بني جنسه وتنبه ميوله العرقية (راجع عودة الروح لتوفيق الحكيم) وفي بعض الفن الحديث نشهد تقهقر الفن واستلهامه للفن الفطري الساذج عند القدماء . وكأن هذه العودة الى القديم نوع من التهرب من الحاضر والاستمساك بالماضي واستمداد القوة منه تخلصاً من بأس الحاضر وآلامه . وهو تفسير معقول فالفنان — وهو عادة شخص قوي الحس مرهف الشعور — اشد تبرماً بمساوىء المحيط من باقي الناس ولهذا يجد ملاذه في الرجوع الى الماضي الذي صوره له الخيال في حلة من نور .

لكن الفنان لا يستمد فنه من الماضي فقط او من العقد الفطرية التي بنيت عليها الاساطير ولكن له ايضا عقده واحلامه الخاصة ذات العلاقة بالحاضر . فقد يحلم بالشهرة والمجد او يكون لنفسه رغبات معينة لكنه حين لا يرى سبيلا لتحقيق احلامه يميل عن الحياة الواقعية الى الحياة الخيالية وبواسطة الخلق الفني يبني من احلامه شيئاً جديداً ويلقي عليها من فنه برقعا — ومن هنا مصدر الغموض في الفن — وبهذا يفقدها صبغتها الشخصية ويجعلها مشاعاً للغير وسبب متعة لهم ويخفي اصلها المريب ويرضي بها حاجات مقهورة ورغبات جائعة في صميم نفسه . فالفن والحالة هذه تحقيق خيالي للميول الباطنة

ونوع من ترفيع الغرائز او تحويلها والتسامي بها . « وفي الشعر تسام عن المشاكل المادية واستبدال لذائذ الحس بلذائذ الخيال او لذة الفم بلذة النظم وبين نوعي اللذة صلة لان الكلمة شفوية كالطعام وكأن الشاعر يحس بلذة قوية في التئام القوافي ودغدغتها لشفتيه» .

هكذا يتصل الفن بينبوعين يتغذى منهما اولاً الماضي والتاريخ وفطرة الشعب ذات الاساطير والحكايات الملأى بالرموز والاشارات التي تنطوي تحتها العقد والغرائز الفطرية . ثانياً احلام الفنان وميوله واختباراته الخاصة . لكن الفن ليس بعثاً للماضي فحسب ولا يكتفي بان يكون حركة رجعية لكنه يعتنق ايضاً الحالة الحاضرة ويقيم العلاقات المنسجمة بينها وبين العقد القائمة اي انه يحاول ان يجد للحالة الراهنة حلاً موفقاً . فهو صلة بين الماضي والحاضر ووحي المستقبل وتوفيق بين العناصر المتنافرة . وعلى هذا يبنى الاثر الفني – سواء أكان موسيقى ام مسرحية ام قصة ام رقصاً ام قصيدة – يبنى على عقدة تشتد وصراع يتأزم ثم لا يلبث حتى ينحل بخاتمة سعيدة او محزنة لكن اثرها في النفس واحد ، اثر راحة واطمئنان .

ويتكون الاثر الفني بصورة تشبه الالهام لكنه نتيجة تأثير او انطباع سابق هز العقدة القائمة في لاوعي الفنان وبعد ردحة من الزمن – مدة اختمار – ظهرت الرؤيا الفنية الى حيز الوجود كأنها بنت ساعتها وهي ليست كذلك والفن يشبه الحلم في ان كليهما يصدر عن اللاوعي ويعبر عنه بصورة مبرقعة رمزية لكن الفرق بين الفن والحلم ان الثاني انكماش ذاتي منقطع عن العالم الخارجي اما الفن فهو انكماش يشق له طريقاً الى العالم الخارجي ويتصل بنفوس الناس . وفي الحلم ينحصر العمل بالعناصر الغريزية الفطرية بينما في الفن تستيقظ الشخصية كلها بافكارها وصورها – والحلم هرب من الواقع بينما الفن ينفذ من الوهم الى الواقع وهو توازن بين الانعزال والاتصال ، بين الانطواء والانتشار فليس للفنان انعزال المتصوف ولا اتصال رجل الاجتماع – يقول رانك العالم الالماني : « ان الصراع النفسي يميل الى التعبير عن ذاته بالفن حين يكون من القوة بحيث لا يسعه الحلم وفي الوقت نفسه اضعف من ان يخلق الاضطراب العصبي » .

وكما تجوز المقارنة بين الفن والحلم تجوز ايضاً بين الفن واللعب . ففي الثاني ايضاً نوع من التحويل او الاستعاضة عن شيء بشيء آخر : عن الحقيقة بالرمز وعن العقدة بخيالها او اثرها . والفن كاللعب يثير شعور الحرية والنشاط وهو حر كاللعب بمعنى انه لا يتقيد بشكل او مثال ولا يرتبط بغاية او هدف عملي . والفنان – كاللاعب – يضع نفسه مكان الاشخاص الذين خلقهم ويمثل ادوارهم في قصصه ومسرحياته ويتبدل بتبدلهم وهو كالطفل في مرونته ومقدرته على التحول ولهذا يحتفظ بشيء من نضارة الطفولة وتقلبها وغرابة اطوارها وعنادها . وليس أبعد عن الفن من الانسان الجامد عبد التقليد والقانون .

والفن وسيلة تعزية وتنفيس ومصرف الميول الباطنة ، لا عند الفنان فحسب ، بل ايضاً عند متذوق الفن . والتذوق مشاركة واتصال قوي بين نفس الفنان ونفس متذوقه وهو عند الاثنين مصدر تلاؤم وانسجام بين الشعور والعقل ، بين الوعي واللاوعي . وتكون اللذة الاستاطيقية عند المتذوق شعور ارتياح وتفتح نفسي وانفراج منقطع النظير .

*

لقد أتينا على مجمل وجيز لآراء السيكولوجيين في العوامل الحافزة للفن . ولنذكر ان هذه العوامل لا تحدث تأثيرها الا حيث تصادف الطبيعة الفنية ، او القوة المبدعة . وليس كل صراع نفسي ينتج فناً . اما كيف تولد القوة المبدعة في نفس الفنان فهذا ، كما يقول فرويد ، خارج نطاق علم النفس .

ونحن لو اردنا التعليق على هذه الآراء لقلنا انها مجرد نظريات مشتقة من نظرية اللاوعي . ولا تزال تفتقر الى اثبات لكن الاختبار يؤيد صحة كثير منها . ونكتفي بأن نلفت النظر منها الى امرين : اولا ان فرويد مع اشارته الى ما يحدثه كبت الغرائز احياناً من نتائج سيئة واضطرابات عصبية ، يراه امراً ضرورياً لمصلحة الثقافة والخلق الفني . وليس الكبت بضائر صاحبه اذا عرف ان يتزود بالثقافة السيكولوجية التي تعينه على معالجة مشاكله النفسية وايجاد المصرف المناسب لاحلامه ورغباته المكبوتة .

ثانياً ان الفن – مع كونه نتاجاً شخصياً ينبع من اختبار الفنان ويحمل طابعه الذاتي – يتصل ايضاً بصميم حياة الشعب ويستمد غذاءه من دور الفطرة والاساطير وبهذا يتخذ صفة شعبية خالصة فلا يصح نقله عن شعب آخر مهما كان التأثير الاجنبي قوياً ومن هنا نرى اهمية المحافظة على تراثنا القديم من اساطير واقاصيص اذا اردنا ان يكون لنا فن نجاري به بقية الشعوب[1] .

روز غريب

---

(١) وهي نظرية توفيق الحكيم التي بنى عليها مسرحيتيه « شهرزاد » « واهل الكهف » .

من وحي دجلة

بقلم بديع حقي

ليالي بغداد

هذه ليلتي الاولى في بغداد ، وما احلاها !

هناك ، في المدى البعيد ، حيث يسف الافق ويتدانى من الارض ، يزحف دجـلة ويحبو ، في مشية هادئة حالمة ، فاذا ما وافى جسر بغداد تطامن وانحنى ، ومضى لطيته، حيث تتعانق الارض والسماء ، في المدى البعيد البعيد .

ارأيت الى تلك النجوم وهي تتلع اعناقها الدقيقة ، من الفضاء الوسيع ، لتتأمل خيالها ، فوق صقال دجلة . انها ترتعش وتختلج ثم تتحلق البدر ، حين يقبل من الافق الى موعده .

تبدى لي البدر ، الان ، والنجوم حوله ، كنار افريقيه تتراقص حولها وتتواثب بنات القبيلة .

فوق زورق

ايها الزورق الذي يتهادى فوق دجلة ! بالله عليك . . . الا مددت مجدافيك البارعين اللبقين ، ليقطفا هذه النجوم التي تمرح فوق المياه ، فقد كلّت يدي حين رفعتها — وكنت طفلا — لامتشق النجوم واقطفها من السماء فما استطعت . . .

حين تنظر في ماء دجلة

اذا راق لك ان تنظر في ماء النهر، اترى الى خيالك النحيل ينعكس على صقاله؟ احسب ان هجيراه ومناه وغايته التي لا يحيد عنها هو ان يسرق خيالك الحبيب ويفوز به ويدخره في اعماقه ليزهو بـه على شطآنه المرعة الخصيبة .

انت تظن ان هذا النهر يثب ويحيـا من اجلك ، وان هذه النجوم المتلاحمة في افقه تتوامض مومئة اليك ، وان هذا النخيل حين يناسم الهواء سعفه يشير اليك . . .

ما اصفى هذه « الانا » تتمشى في عروقك ، كما تتمشى الحياة في هذا النهر الخالد . .

عند جسر بغداد

يا ام العباءة ! ! حنانيك وعفوك ! انا افرق من عيون المهـا تغمز وتشير وتومي فوق هذا الجسر العنيد ، جسر بغداد .

اذا علمت وانت تخطرين فوق الجسر ، وتتلفتين خائفة مذعورة ، ان هذا الذي يرامقك من بعيد ، ويعطف على ظلك القلق المرتعش ، هو شاعر نأى عن احبته ، في دمشق ، وانه لا يطمح منك بموعد او لقاء . . وانما بنظرة ، بنظرة واحدة .

على ضفاف دجلة

انت لا تأ لو تتساءل ، حين تتسرب نظراتك ، لتعانق امواه دجلة ، نهرك الهائم الحالم ، عن السنين التي ذابت على سيفه اليانع الاخضر ، تريد ان تعتقد ان هذا المكان الذي فزعت اليه ، قد جاس فيه الرشيد ، وترنح حول عذاريه النواسي ، ورادت في حفافيه الرباب وعنان وعلية المهدية ، ويقوم في

خاطرك ان القيان والجواري ، لا يزلن يسبقن خفقة الحلم في الجفن وهن يخطرن بين الرصافة والجسر ، وعيونهن ما فتئن يجلبن الهوى الى قلبك الرهيف من حيث تدري ولا تدري .

ذات العباءة السوداء

تتأودين مثل تلك النخلة السحوق ، تتمايلين على جيد دجلة غنوجاً ، غضوضاً ، ريا ، رفافة الحسن
يا ام العبايه ، لقد عشقت السواد واحببته من اجل عينيك وعباءتك
في خفق خطاك يعربد البوح ويحلو ..
في حديثك الشهي تضوع العطور وتعبق الطيوب ..
حول ذلاذل تلك العباءة السوداء تتناغى قدماك الصغيرتان، وتهبان الى الارض بركة وخصباً ونماء ..

نخيل الشاطئ

تالله انها لذكية مرهفة الشعور وانها لشاعرة ، وهي تشير الى النخيل وقد سمت اليه نسمة من الشاطئ البعيد فتقول :

« ارأيت الى هذه النخلة ، يداعبها النسيم ويمر فوق عذباتها ، فينهض غصن وينحني غصن ، انها كفتاة ملول ، ضاقت بخصلات من الشعر تناثرت فوق جبينها ، فمدت اناملها الرقيقة النحيلة ، وازاحتها ، في هينة وفتور ، ثم وسدتها فوق اذنها الدقيقة ... » :

رباه ! متى يسلسل لي هذا المعنى في قصيد !

وقلت لها : « ارأيت الى هذه العناقيد الصفر من البلح تتدلى، انها كبراعم الاثداء المتراخية المتدلية»
فاشمأزت ، ونحت وجهها ، ساخطة على هذا التشبيه ..

رباه ! ان اطرق هذا المعنى في شعري ولو قتلت .

مقاطع من رسالة

... اكتب اليك ، وانا استشرف دجلة ، جالساً في مكاني المعهود من الشرفة ، انظر الى نهر الاحلام والاساطير وهو ينساب في سيره الوئيد الحالم ، وعلى شطآنه البعيدة القصية ، تتسلسل اشعة من النور ، باهتة ، ناصلة ، وتحبو فوق جبينه ، لتموت وتغيب على شاطئنا القريب ..

هناك ... تخطر الزوارق الصغيرة ، غادية ، رائحة ، تبين تارة حين تعانقها خيوط النور وتمحي تارة ، حين تلفها العتمة ..

ومهما اظلم الليل وادلهم ، فما يتأتى له ان ينال من دجلة ، او يتحيف منه ، ان نجمة واحدة تلتمع في الافق ، يقدر هذا النهر ان يستعير منها بريقاً يغنج فوق صفحته الملبسة الرقيقة ...

ايتها الظبية الحالمة

ايتها الظبية الحالمة على الضفاف ! .. ما اجمل لفتتك وما انداها ! ما اروع سواد عينيك وما احلاه ..
لو كان قيس الملوّح الى جانبي ، لتذكر ، في عينيك ليلاه ، وسعى اليك وانت في اغفاءتك الحلوة القريرة ، ليقبل معقد حاجبيك .
ايتها الظبية الحالمة !
سأبيع كل ما املك ، لاشري من سواد عينيك الغالي كحلاً الى حبيبتي ..

دمشق　　　　　　　　　　بديع حقي

من سمات القومية العربية

بقلم عبد الله عبد الدائم

*

عندما تستوي الحقيقة يتصل فيها الواقع بالواجب، ويغدو اتباعها عين وجودها لا زائداً على هذا الوجود، ويصبح التبشير بها تعبيراً عن قدر محتوم، لا تنميقاً لهدف مصنوع او تعليلاً لغاية موضوعة. وعندما تكون بنية الفكرة صحيحة تكون صحتها مغنية لها عن اثبات برئها من السقم، ويكون تحركها ونشاطها نافياً امكان عللها.

وحقيقتنا القومية امر واجب لانه واقع، وفكرتنا العربية سليمة من العلل، غنية عن التعليل، لانها بداهة لازمة، ولانها حياة لا تحلل ولا تعلل الا بذاتها. فوجودها هو عين وجوبها، وسببها هو قيامها في وجود الافراد وسيطرتها القدرية على شعور الجماعات. فلا تسألها لم توجد، فما كان لك ان تسأل عن نغمة الحياة في الشعب لم تريد ان تثبت ذاتها. ولا تحاول ان توضح لها ما يعترض طريقها من عثرات وما يبيت لها من مقاومات، فهي لن تسيغ منطق التحليل والوصف، الذي لا ينتهي السائر فيه الى نهاية، اذا هو أخذه في مظهره الخارجي وبنائه الشكلي، والذي لا يلبث حتى يتداعى من اول حلقة في سلسلته المتكاثرة، اذا هو خلاه الى المنطق الباطني الحي. فقوميتنا العربية هي الكلمة، ان صح هذا التعبير الديني، وهي ذلك القول العضوي ينطق به كيان الفرد ويتمخض عنه شعوره، وذلك المصير المحتوم ترزح تحته الجماعة وتشعر ان كيانها مرتبط به ونجاحها مرهون بتحققه.

فاول ما نستند اليه اذن في فكرتنا القومية هو وجوب الواقع وضرورة الموجود. فالفكرة العربية واقع يتحدى أي واقع آخر، لان لها جذورها في بنياننا العضوي ولان لها انعكاسها في حياة شعبنا ومشاعره العفوية. والعجيب البرهان عليها لا العجز عن البرهان. والفكرة العربية واقع بمعنى آخر أيضاً، لانها الى جانب تعبيرها هذا عن حياة الشعب الحرة، تعبر بطريقة عكسية عن وجوب انقلاب الواجب الى واقع. فهي فكرة طبيعية تسكن نفس الشعب، ولكنها فوق ذلك واجب يقتضيه كيان هذا الشعب، وقدر يفرضه عليه شعوره بذاته وبحاجته الى انشاء بنيانه المتين. انها بدء مطلق بالنسبة الى حياة شعبنا لا يسبقها بدء ولا يقدم عليها سبب او دافع. فهي السبب الاول لوجودنا، وهي واجبة لان كياننا واجب، ولان بعثنا لذاتنا واجب. انها منا كنسمة الحياة تشيع في اعضائنا فتبث فيها النشاط وتخلق العمل المنسجم.

ولا يعنينا كثيراً ان نتساءل ونطيل التساؤل في أمرها، وان نطرحها على بساط البحث، مشكلة لها اصولها وفروعها، ولها ميسراتها وعثراتها، فالحياة الدائبة في الشعب لا تطرح في نظرنا كمشكلة، ولا تعالج معالجة عقلية علّية، توازن فيها الارباح، وتقدر الخسائر، وتسرد الذرائع، وتعرض العقبات على المسرح فتوهب حركة وحياة ليستا لها، وانما تؤخذ في صفائها ونقائها حقيقة اولى تزول امامها العقبات وتمحي الموازنات، لانها قبل كل عقبة وفوق كل موازنة. فالروح الحية الخلاقة، التي تشعر بوجودها في الكون وتلمس حرارة هذا الوجود، لا تصل الى بغيتها عن طريق سلبية، فتحطم العقبات تترى، وتحصل على ذاتها بصراعها مع غير هذه الذات، وانما تنهج منهجاً ايجابياً فتفرض ذاتها كموضوعة اولى، وتنكر ما عداها، وتتجاهل كل شيء سواها، فتجتاز العقبات بافتراضها لها معدومة، وتصل الى هدفها بتخطيها كل هدف حين تضع نفسها مطلقاً لا يبلغ الا قفزاً. فانت، اذا بدأت من العدد والاحصاء، لم تنته الى نهاية، وذهبت في عدك واحصائك من سابق الى لاحق ينتج عنه بالضرورة ومن مسبب الى سبب دون ان تقف في هذه السلسلة اللامتناهية عند حد لا يتلوه آخر، اما اذا ابتدأت من التقرير الذي يوحيه لك واقعك الحي، واخذت هذا الواقع كضرورة يفرضها مجرى الحياة فيك وفي امتك، لم تقع في العقم الذي يفرضه منطق الحساب، ولم تصل الى الشلل وتعطيل العمل اللذين يوجبهما منهج التحليل. اضف الى هذا ان الامر ليس أمر اختيار بين منهج ومنهج وترجيح لطريقة على ثانية، فمنهج التقرير الحي هو المنهج الضروري الذي تفرضه الروح الواعية الحريصة على وجودها، العاملة على تثبيت كيانها، وهو السلوك المحتم على كل امة صحيحة البنية، قوية الايمان باصالتها. فمثل تلك الروح لا تفقه الا كلمة واحدة هي فرض وجودها، واشباع تلك الحماسة المتقدة فيها، واطلاق كلمتها في الكون. ومثل تلك الامة لا تفهم المرض معنى ولا تسيغ للعجز طعماً، فلا تستطيع ان تشعر بعقبة تعوقها عن انطلاقها الحر وابداعها الطليق، ولا يراودها احساس بعنصر غريب عنها او بغل مكبل لنشاطها. فالمريض وحده هو الذي يحس اعضاءه »، على حد قول اشبنجلر، والعليل وحده هو الذي يقيم وزناً للعلات، فلا يتصور الصحة الا زوالاً

المرض ، كالذي يتصور الحركة زوالاً للسكون والحياة قتلاً للموت ! وما شأن مثل هذا التصور الا ان ينتهي بالمرء الى العطالة المطلقة ويجعل منه نابشاً عبقرياً عن مبررات التراجع واسباب الاحجام . فيصيبه ما اصاب سهم « زينون » من التثبيط ، او ما اصاب «آخيل» حين اطال التحليل والتجزيء ، فانتهى الى استحالة الحركة ، وكانت السلحفاة ، بايمانها الساذج بامكانياتها ، انجح منه مقصداً .

فارادة الامة لا تخلق بعد المداولة ، ولا تصطنع اصطناعاً ، وانما تؤخذ ككلمة اولى تنطق بها دفعة واحدة ، دون فصل بين غاية ووسيلة ، وبين مبدأ ونهاية . فالكلمة لهذه الارادة وحدها ، لا لمن ينظر الى هذه الارادة من خارج ، فيخطيء فهمها ، لانه غريب عنها ، بعيد عن حياتها . فطبيعي ان ينتهي مثل هذا الناظر الى انكار هذه الارادة وتثبيط حركتها ، لانه يهمل ، في نظرته هذه ، كل ما فيها . فالعمل المبدع لا يكون ابداً وليد الفكر المحلل المتحلل من حرارة الروح ، فمثل هذا الفكر لا يملك الاندفاعة ولا يحتوي البدء بحركة معينة دون غيرها ، بل تستوي عنده كل الممكنات ، وتتكافأ كفات الامور ، فلا يقوى على الجزم ، والجزم منبع كل ارادة فعالة . اما النفس الحرّى التي تشعر بمطلقها وابدية ذاتها ، والتي تصهر المنطق في لهيبها ونظم الاسباب في لحمتها ، فهي التي تأخذ فتطرح ، وتقرر فتنفي وتمضي فتتراجع تجاه مضيها العقبات وتطوى طياً .

اذن ، فاستعراض القومية العربية استعراضاً علمياً خاطئاً امر خاطيء الوضع في نظرنا ، فما هي مشكلة حتى تطرح ، ولا هي شكل مصنوع حتى يوصف ، وانما هي واقع حي يفرض ذاته فرضاً ويطلب تحقيقه جزماً . وكل ما في الامر اننا بين شيئين : فاما ان تكون الحياة العربية مبثوثة في الشعب ورغبة البعث قائمة في النفوس ، وعند ذلك لا يقوم لتعاليل قائمة ولا تنهض لحجة حاجة ، واما ان تكون هذه الحياة راكدة خاملة والرغبة في الاحياء خافتة ، واذ ذاك لا يعدو النهج العلمي ان يكون تعبيراً عن هذا الخمول وتبريراً للعجز ووصفاً صادقاً لداء يحجب معنى الصحة عن النفوس ، ويطمس فيها مشاعر النهوض . وأياً ما كان الامر فهذا النهج العلمي خاطيء ، وايا ما كان الامر فالنهج الحي ضرورة قدرية عندما يكون النشاط هو المسيطر ، وضرورة حيوية عندما يكون الركود هو المتغلب . هو واقع واجب عندما تشعر النفوس باشتعال الفكرة في داخلها وهو واجب واقع ، عندما يكون الصدأ قد استحوذ عليها . فالمسألة ليست مسألة بحث وانما هي مسألة وجود . البحث عبد المنطق ، اما الوجود فأعمق واغزر من ان يتاحه المنطق وتقتصه العلل .

وهنا اريد ان استحضر ذلك التشبيه الذي طالما ألح عليه « برجسون » ، وهو ان نتصور كومة من الرمل ذات شكل معين ، ثم نتصور ان هذه الكومة ما اتخذت هذا الشكل الا بعد ان صفت ذرة فذرة صفاً يستهدف هذا الشكل النهائي ؛ فمثل هذا التصور من شأنه ان يشعرنا بطول الامد الذي يتطلبه هذا العمل بل باستحالة توفره . بينما اذا تصورنا ببساطة غرزة قدم تعبث في هذه الكومة من داخل ، وقد كانت من قبل عديمة الشكل ، فتحدث فيها هذا الشكل ، استطعنا ان نفهم يسر هذا العمل وامكانه . كذلك التطور المثمر ، يعمل من داخل ولا ينضد الامور من خارج ، وينشط في دفعة خلاقة ولا يطيق العمل الآلي الطويل . وكذلك الامة الواعية اليقظة ، تشق طريقها في الوجود بغمزات من الباطن ، تخلق في لحظات معدودات ما لا تخلقه سنون من التركيب الصنعي ، وتلهب في لمحات نفوساً لا يوصل معها الى الحماسة بقرون من المراس المنطقي والشرح العلمي . فشعور واحد يغمر نفس الامة ويرضعها دره الغزير كفيل بأن يثير فيها قدرة لم تكن مقدرة فيها من قبل . وهيهات لمنطق ان يتنبأ عما لا يمكن التنبؤ عنه من الابتكار الوليد الذي يطوف على شعور الامة حين تحمل بالحماسة ، وهيهات لتنقيب ان يكشف عما لا يرى ولا يلمس من الدوافع الخفية التي أشاعت حياة معينة في امة معينة . ان مثل هذه المشاعر الحارة لتمضي ساخرة من اولئك الذين يرمقونها مستطلعين ، وتضل من ينشدونها باحثين ، ولا تحتضن الا من انغمس في تيارها فحملته في عبابها . فالابداع يجر وراءه الابداع ، والشعور القوي يلملم من حوله كل قوة ، فلا يزال يتلبس بها ولا يزال يتضخم وينتشر حتى يتحدى كل حسبان .

فمشكلتنا مشكلة قومية لان الشعور بها هو هذا الشعور القوي الجرار ، الذي يلقي بنا في تقدم خلاق ويقذفنا في انتاج متجدد ، لا يوصلنا اليه الحفر والتنزيل ، ولا نبلغه بالترصيع والتقاط المواتيات وتجميعها . ان عمر الارض يعجز عن استيعاب ذلك القدر من السنين الذي يحتاجه التطور الداروني ليخلق ، من نقطة حساسة للضوء ، هذه العين النامية ، وليصل ، عن طريق الاصطفاء واغتنام الظروف الملائمة ، الى هذه النتيجة الخارقة . فما كان لمثل هذا التطور ان يثق بالوصول ، وما كان له ان يضمن تغلب الظروف المواتية على الظروف المنافية . وكذلك التطور التاريخي في الامة ، لا يكون بالاصطفاء وتوفر المناسبات ، وانما يكون بفعل باطني ، يكون بشعور ، لا بعلم الامة او بحث في الدولة .

القاهرة — عبدالله عبد الدائم

(من مكتب البعث العربي بدمشق)

نغم

☆

مهداة الى الشاعر الانيق امين نخلة

●

هُدبٌ تكسر والتوى ، وفم يفتش عن قدَحْ
ودم يضيق بجسمه ، فيكاد ينصل كالشبح
غيبوبة رانت عليه ، وعالمٌ ، خدر ، ألح
سكران ! مات الكأس في يده ، فماتت ، أم نضَح ؟
نغَمٌ طواه ولفه ، وسرى . ترى أنى سرح ؟
نغم كأن الخمر تهمس فيه ، او حلماً لَمِح
نفَضَ الوجود ، فرده ، لا ليل فيه ، ولا صبح

*

أرأيت كالنغم الذبيح ، ينوح ، والوتر الابح ؟

*

نغم ، على القيثار ، يبكي ، في رفيف الذكريات.
فض الزمان ، فأجهش الماضي ، وعاد الى الحياة
وتداخلت بيض الرؤى ، في الناصلات الغائمات
وترنح النغم الحزين ، على الشفاه الحالمات
وانساب ، من دنيا ، الى دنيا ، فأيقظ دنيوات
أغفى على آه ، ونام على جراح ، في اللهاة
يا ليل ، صب الكأس ، في نخب الجراح ، وخذ ، وهات

*

يا ليلُ ! آه الليل ، آه الكأس ، لو وَعَيا شكاتي !

حمص وصفي قرنفلي

نظرات في شعر المرأة

بقلم عبد الغني العطري

صاحب مجلة الدنيا

☆

اذا كان الشعر فناً من فنون الحياة، ترقص له القلوب، وتطرب له النفوس وتنتشي به الارواح فلأنه وحي آلهي علوي ونفحة من نفحات العبقرية والنبوغ يوحي به الله الى اناس خصهم بالشعور المرهف والحس الدقيق، والعاطفة الرقيقة. ومن لم يكن متصفاً بذلك فما احسب انه يملك القدرة على قول الشعر الحق، الشعر الذي يسمو بالانسان ويهز فيه اوتار القلب.

والمرأة في نظري شاعرة بالفطرة لما تملكه من رقة العاطفة ودقة الشعور. واذا كنا نجد شعر المرأة العربية معدوماً او في حكم المعدوم فالسبب في ذلك يرجع الى امرين: اما الاول فهو البيئة التي فرضت عليها العزلة وصرفتها عن التفكير في غير شؤون البيت. واما الثاني فهو اتلاف ما كان بعض نساء العرب يقلنه من شعر، لان البيئة كانت ترى في اشتغال المرأة بالشعر خروجاً على الحياء وروح الحشمة. على ان تاريخ الادب العربي يحفظ لنا عدداً كبيراً من اسماء شاعرات العرب سواء في الجاهلية ام في الاسلام. كما حفظ لنا كر الغداة ومر العشي نماذج قليلة من هذا الشعر لا تغني ولا تسمن ولكن فيها روحاً شاعرة مرهفة.

اذكر اني وقعت على كتاب جمع فيه صاحبه شعراً لاكثر من مئتي امرأة من شواعر العرب في شتى العصور، ولكنه رغم جهده لم يستطع ان يأتينا باكثر من ابيات قلائل لكل شاعرة. وهذا الكتاب الذي اعنيه والذي ضم اكثر شعر المرأة العربية لا يكاد يتجاوز مئتي وخمسين صفحة اي اقل بكثير من صفحات ديوان واحد لشاعر عربي. ومن هنا نلمس اثر الخسارة التي مني بها ادبنا العربي بفقده هذا التراث الثمين.

اما شعر المرأة الذي وصل الينا فلا يتميز بعمق الفكرة وبراعة المعاني، ولكنه في جملته عاطفة مشبوبة، وحس مرهف، ونفس تسيل حزناً افقد الاب او الاخ او الزوج، وتعبير عما تحس به حولها من ألم وفرح، وغيرة وحسد، وحب وبغض وحسرة على زوج او كره لرجل. وشعرها قصير النفس اكثره مقطعات وابيات متفرقة على انه لا يخلو من القصائد المطولات التي يضارع بعضها شعر فحول الشعراء. كما نجد ذلك في شعر الخنساء، وليلى الاخيلية.

ويتميز شعر المرأة في الجاهلية بالقوة والجزالة والفخر والحماسة ويتميز في الإسلام والعصور المتأخرة بالرقة والمجون وكثرة الغزل.

ولعل اروع ما في غزل المرأة ذلك الغزل الرصين المتزن الذي يشعرك بأنك امام عاطفة انسان يحب ويتأثر بالحب ولست امام مخلوق متبلد الحس فاقد العاطفة متحجر القلب. والمرأة تقول اروع غزلها عندما تترك بعض حيائها، وتجهر بما يشتمل في قلبها من حب، وما يخالجها من غيرة على من تحب. من ذلك قول حفصة الاندلسية:

اغار عليك من عيني رقيب	ومنك ومن زمانك والمكان
ولو اني خبأتك في عيوني	الى يوم القيامة ما كفاني

وقول علية بنت المهدي:

يسليك سرور لا ولا حزن	وكيف لا كيف ينسى وجهك الحسن؟
خلا منك لا قلبي ولا جسدي	كلي بكلك مشغول ومرتهن

ولنستمع هنا الى علية تحدثنا عن الحب حديث خبير ناصح:

تبصر فان حدثت ان اخا هوىً	نجا سالماً فارج النجاة من الحب
واطيب ايام الفتى يومه الذي	يروع بالهجران فيه وبالعتب
اذا لم يكن في الحب سخط ولارضى	فاين حلاوات الرسائل والكتب؟!.

والبيت الاخير وحده يساوي في نظري كثيراً من شعر الغزل وقصائد الهوى.

والى جانب هذا الشعر النزل الذي يخفي وراءه قلباً مولعاً بمن يحب، يغار عليه ويخلص له، نجد – كما نجد لدى كثير من الشعراء – شعراً تحمر لسماعه وجنة العذراء. فما بالك اذا كان مصدره المرأة؟! .. لقد تبذلت بعض النساء في العصور المتأخرة ونطقت بشعر حفظته كتب الادب، ولكنه لا يمت الى وقار المرأة وحيائها بصلة.

والمرأة كما قلت رقيقة الشعور، مرهفة الحس. وهي بحكم هذه العاطفة اكثر الناس حزناً واكثرهم فرحاً. فهي عند ما يحل بها مصاب، كفقد الزوج او الولد او الاخ، تجدها كبداً محرّقة ملتاعة، وقلباً يذوب حزناً واسى. فاذا كانت المرأة شاعرة افصحت عن هذا المصاب بشعر يبكي له الغمام ويرثي له الحجر الاصم. ولربما كانت الخنساء اكبر دليل على ما اقول. فلقد اصطلحت عليها الاضداد، واتفقت عليها النوازل، واصيبت بفقد اخويها صخر ومعاوية، ثم احتسبت اولادها في وقعة القادسية. على ان اكثر مراثي الخنساء في اخيها صخر، فقد ظلت تبكيه بشعر حزين يمزق نياط القلب، ويستثير لواعج الفؤاد الى ان تقوس ظهرها وابيضت عيناها من الحزن والاسى. ولنستمع اليها تحدثنا عن فجيعتها به:

يذكرني طلوع الشمس صخرا ... واذكره لكل غروب شمس
فلا والله لا انساك حتى ... افارق مهجتي ويشق رمسي
فقد ودعت يوم فراق صخر ... ابي حصان، لذاتي وانسي
فيا لهفي عليه ولهف امي ... ايصبح في الضريح وفيه يمسي؟

ولنمعن النظر قليلا في هذين البيتين، ففيهما حرقة ولوعة:

بكيتك في نساء معولات ... وكنت احق من ابدى العويلا
اذا قبح البكاء على قتيل ... رأيت بكاءك الحسن الجميلا

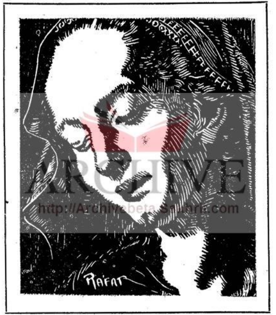
وقد كانت الخنساء ارثى شواعر العرب، بل فضلها كثير من الشعراء، على فحول الشعراء في شتى ابواب الشعر.

وفي الشعر العربي شواهد كثيرة على مصاب المرأة بفقد احبتها وكلها تدل على علو كعب المرأة في الرثاء، وشدة تأثرها بالمصاب، حتى ليكاد المرء يشعر بقلبها يتفطر حزناً ولوعة.

استمع على سبيل المثال الى قول اعرابية ترثي ولدها:

من شاء بعدك فليمت ... فعليك كنت احاذر
كنت السواد لناظري ... فعمي عليك الناظر
ليت المنازل والديار ... حفائر ومقابر
اني وغيري لا محالة ... حيث صرت لصائر

ورثاء المرأة، الذي تجده موزعاً بين دواوين الشعر وكتب الادب، لا يعدو ان يكون دموعاً سخية، وعويلا حزيناً، اما آلام القلب ودموع الفؤاد، وتصوير المصاب ووصف الالم، فذلك يسير نادر في شعرها.



ولا بد قبل ان نطوي الكلام عن الرثاء في شعر المرأة، من الاشارة الى ان هذا الفن ابرز ما امتاز به شعرها، ان لم نقل انه خير ما طرقت من ابواب الشعر على ان رثاءها لا يتعدى الزوج والولد والاخ او احد الاقارب الذين لهم في حياتها مساس، وفي قلبها معزة ومحبة. اما رثاء العظماء والخلفاء والامراء، فنادر جداً في شعرها. وما ذلك لتبلد في حسها وانما مردّه فيما ارى الى ان المرأة لم تكن تتأثر الا بما يحيط بها. وقلما كان للمرأة اتصال بخليفة او امير او وزير كي ترثيه اذا ما توارى عن الوجود.

واذا ما تركنا المرأة تقف في المآتم تبكي هذا وذاك من اقاربها الذين كواها بعدهم ولوّعها فراقهم، وجدنا في شعر المرأة الجاهلية ابواباً من الشعر تذكر. وفي طليعتها الفخر فالجاهلية كثيراً ما تفخر بقومها وبكرمهم، وتشيد ببطولتهم وشمائلهم. اولئك الذين لا يغدرون ولا يخونون ولا يخدعون.

والمرأة – كما في فخر الرجل – تضفي على من تفخر بهم من

قبيلتها وعشيرتها واقاربها احسن الصفات ، واجمل المزايا . وها هي صفية بنت عبد المطلب تفخر على قريش بقولها :

الا من مبلغ عني قريشاً ... ففيم الامر فينا والامار
لنا السالف المقدم قد علمتم ... ولم توقد لنا بالغدر نار
وكل مناقب الخيرات فينا ... وبعض الامر منقصة وعار

وها هي الهيفاء بنت صبيح القضاعية تفخر بأبيها فتقول :

ان ابن عمرو لدى الهيجاء يحميها ... الخيل تعلم يوم الروع ان هزمت
وكل مكرمة يلفى يساميها ... لم يبد فحشاً ولم يجدد لمظمة
اذا الهنات اهم القوم ما فيها ... المستشار لامر القوم يحزمهم
وان ألمت امور فهو كافيها ... لا يرهب الجار منه غدرة ابداً

والى جانب الفخر نجد شعر الحماسة فلقد كان للمرأة العربية مواقف مشهودة في الحروب والقتال ، اذ كانت تحث قومها على النضال والثبات ، وتمنعهم من التراجع ، مؤثرة لهم النصر او الموت في ساحات البطولة . ولا ريب ان نضال المرأة في هذا الميدان له اكبر الاثر في نفس المحارب العربي الذي يفخر ببطولاته واقدامه . فما بالك اذا كانت المرأة خلفه تحثه على القتال بشعر يلتهب حماسة وقوة ؟ .

وهاكم مثلاً على اثر المرأة في هذا الميدان : رووا ان عمليقاً (وهو ملك جديس) تمادى في اضطهاده لاحدى قبائل العرب ، حتى انه امر ان لا تزف امرأة الى زوجها قبل ان تقدم اليه . وتزوجت امرأة يقال لها (عفيرة بنت عفان الجديسية) فحملت اليه ولما خرجت اخذت تحرض قومها على الملك فتقول :

ايجمل ما يوتى الى فتياتكم ... وانتم رجال فيكم عدد النمل
وتصبح تمشي في الرغام عفيرة ... عفيرة زفت في النساء الى بعل
لو اننا كنا رجالا وكنتم ... نساء لكنا لا نقر بهذا الفعل
فموتوا كراماً او اميتوا عدوكم ... وذبوا لنار الحرب بالحطب الجزل
والا فخلوا بطنها وتحملوا ... الى بلد قفر وموتوا من الهزل
فللبين خير من تماد على اذى ... وللموت خير من مقام على الذل
وان انتم لم تغضبوا بعد هذه ... فكونوا نساء لاتعاب من الكحل!
ودونكم طيب العروس فانما ... خلقتم لاثواب العروس والنسل
فبعداً وسحقاً للذي ليس دافعاً ... ويختال يمشي بيننا مشية الفحل

فهب قومها لساعتهم ، وقتلوا عمليقاً مع انصاره واعوانه وخلصوا من ظلمه .

وفي تاريخ الادب شواهد كثيرة تثبت شجاعة المرأة العربية واثرها في الحروب .

*

وفي شعر المرأة ظواهر تسترعي الالتفات من ابرزها شعر الحكمة والنصح ، الذي نجده قليلاً في شعر المرأة ، لكنه يظهر لنا بأجلى صوره في شعر جمعة بنت الخس واختها هند . فشعر هاتين الاختين الحكمي لا يقل روعة في كثير من الاحيان عن شعر زهير بن ابي سلمى ، لاننا نجد فيه فكرة وروعة ورصانة ، مع جمال السبك ومتانة اللفظ . لنستمع الى الاخت الاولى تقول :

وخير خلال المرء صدق لسانه ... وللصدق فضل يستبين ويبرز
وانجازك الموعود من سبب الغنى ... فكن موفياً بالوعد تعطي وتنجز
ولا خير في حر يريك بشاشة ... ويطعن من خاف عليك ويلمز
اذا المرء لم يسطع سياسة نفسه ... فان به عن غيرها هو اعجز

اما الوصف والمدح والهجاء فقليل نادر في شعر المرأة . على ان بعض الشواعر قلن الهجاء ، والبعض اكثرن منه وبرعن به . ولكن اي هجاء طريف قالته المرأة غير هجاء الزوج ؟ ! !

اجل لقد هجت بعض النساء ازواجهن لاسباب اهمها كونهم شيوخاً عاجزين ، او فقراء مدقعين ، او لانهن زففن اليهم على كره منهن . ولقد برعت المرأة في هذا الباب ، وافتنت في ذكر مثالب زوجها ومعايبه . وكثير منهن افحشن في هجائهن واقذعن ، ودل شعرهن على مبلغ كرههن واساءة ازواجهن لهن . من ذلك ان اعرابية يقال لها اميمة دعت الله ان يدخلها النار ان كان سيدخل زوجها الجنة :

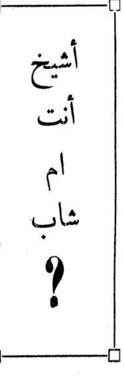
اني ندمت على ما كان من عجبي ... واقصر الدهر عني اي اقصار
فليتني يوم قالوا انت زوجته ... اصابني ذو نيوب سمه ضاري
يا رب ان كنت في الجنات مدخله ... فاجعل اميمة رب الناس في النار

*

وبعد فان اكبر ميزة لشعر المرأة الذي وصل الينا ، ذلك الشعر الذي يبدو فيه الطابع النسوي الخاص الذي نجده في شعرها ، والذي يجعلنا نلمس شخصية المرأة من خلال شعرها ، ونرى اثر الانوثة في ادبها . اما شعرها الذي تحاكي به الرجل في ضخامة القوافي ووعورة الالفاظ ، والذي لا نجد فيه رقة الانوثة ، ولا نعومة المرأة ، فما اجدره ان يكون بعيداً عن روح المرأة كل البعد ، لان اثر التقليد فيه ظاهر . وما اجدر الادب الذي لا يمثل شخصية صاحبه ولا يصور عصره وبيئته ان يموت .

ولئن كان ادباء العصر الحاضر يرحبون بأدب المرأة وشعرها ، فلأنهم يطمعون ان يروا ادباً جديداً وشعراً رقيقاً عذباً يعبر عن آراء المرأة وامانيها . فعسى ان تعنى اديباتنا وشاعراتنا المعاصرات بهذه الناحية ، وان يعملن على ابرازها في ادبهن وشعرهن ، كيلا يصبح ادبهن ادباً ضعيفاً زائفاً . . .

دمشق ... عبد الغني العطري



مترجمة من الانجليزية

كلنا نود أن نكون شباباً ، غير انه لا يمكننـــا ان نكون كذلك الا مرة واحدة . ولكننا نستطيع ان نكون كذلك ، بالرغم من شعرنا الابيض ، وتجعدات وجوهنا ، وبالرغم من بلوغنا من العمر عتياً . فما يعكس اعمارنا الا مظهرنا ومنظرنا ، وما يشهد على حيويتنا الا نهجنا الذي نسلكه في الحياة . والسبب في ان بعض الناس يبدون اكبر سناً مما هم في الحقيقة هو انهم قــد سقطوا ضحايا عادات متكلفة قديمة .

إحذر شيطان عقلك الباطن ! ان فينا عدواً داخلياً يحاول ان يهدم شخصياتنا . هذا الشيطان يغرينا اغراء متواصلاً بان ننظر الى الامور نظرة فيها من الهزل اكثر مما فيها من الجد ، وان لانوليها من الاهتمام لا قليلاً ولا كثيراً ، وان نفعل ما يروق لنا ان نفعل ، بغض النظر عن الظروف والاحوال . وهكذا يشجع هذا الشيطان نماذج سلوكنا الهرمة ، حتى اذا اغفلنا مقاومتها ، تأصلت فينـــا ، واصبحت ذاتية الحركة . ومع ان هذه العادات تبدو اكثر وضوحاً كلما تقدم المرء في السن ، فان نشوءها يعود الى ايام الشباب . فاذا لم نضبطها ونسيطر عليها ، سيطرت علينا ، وسيقول الناس حتما اننا نتقدم بخطى واسعة نحو الهرم .

وهكذا يعتمد الاحتفاظ بالشباب (الذي هو التجديد المستمر للحياة) على تجنب العادات المتكلفة القديمة ، في الجلوس والوقوف والحركات ، وتعبيرات الوجه ، والصوت وغيرها .

عادات الجلوس والوقوف

لا يشتد عمل شيطان العقل البـاطن ، حتى يكاد يميت ، الا عندما نسترخي . قد تتبع احسن عاداتك ، وتنهج افضل سلوكك ، عندما ترى الناس . ولكنك في منزلك على غير هذه الحال . فقد يشجعك غيابك عن اعينهم وملاحظتهم على الضرب بهذه العادات وهذا السلوك عرض الحائط ، وعندئذ يخف شيطانك الباطني الى العمل ، ولو انك تحاول طرده من لحظة الى اخرى . واليك بعض العادات الذميمة التي عليك ان تقلع عنها اذا اردت ان تبدو اكثر شباباً .

الظاهر ان هذه المقاعد الحديثة لم تخترع الا لتجعلنا منبسطي الصدور ، ظهورنا كالبراميل ، تزينها حدبات العجـائز من النساء . فالجلوس على سلسلة ظهرك يجعلك تبدو هرماً باسرع ما تستطيع اصلاحهـا بالتمرين الرياضي . وانت تشبه ، اذ تتمدد على تلك الهيئة ، صحناً من « البوظة » نصف المائعة . وكذلك تضعف هذه الجلسة عضلات ظهرك السفلى ، وتحني سلسلته . لاحظ طفلاً في

الخامسة من عمره وهو جالس على مقعد ينتظر ان يقدم اليه كأس من الشراب . ان ظهره مستو استواء المسطرة . وقد كان ظهرك كذلك عندما كنت في مثل سنه . اما الان ، فعلى اي حال هو ؟ وكيف تبدو انت ؟

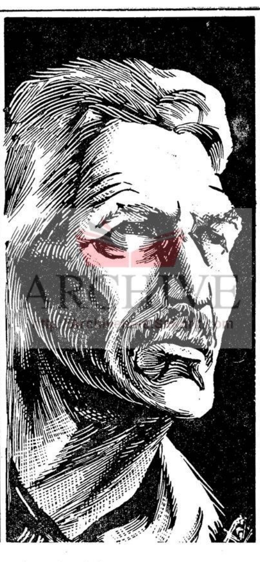
هل تنحني الى الامام عند صعودك السلالم ؟ ان كان ذلك فانت لا شك تبدو هرماً . ان المصاعد ، والسيارات تخرّب عضلاتنا ، فسعيد هو الرجل الذي يضطر الى ان يرتقي السلالم مرات عدة كل يوم ، فان في ذلك اصلاحاً بيّناً لها .

وهذا الرجل المسن الجالس ، واصابع يده اليمنى تلمس بحذر وعناية اصابع يده اليسرى ، لا يفكر ، وهو في هذه الحال ، في ان يتزوج ، او في ان يقدم على عمل جليل . انها هيئة تأمل ، وتبصر ، ونادراً ما يكون التأمل والتبصّر من صفات الشباب . انه دائماً ممتلىء حياة ، ايجابيّ ، مستعد للعمل ، همه في « هنا » و « الان » لا في « غد » و « هناك » .

ثم لاحظ اولئك الذين يصغون الى محاضرة او خطاب ، ورؤوسهم مائلة قليلاً الى جانب واحد . ولاحظ ايضاً كيف ان المسنين من الرجال يميلون الى ان يفعلوا الشيء نفسه ، ثم استنتج بعد لنفسك ما اذا كان للشباب هذه العادة . اكفيك المؤونة ، واجيب عنك بـ « لا » باحرف كبيرة ظاهرة .

يرمي الشاب بنفسه على المقعد رمياً ، قد يتمدد وقد يضع قدميه على وشاحه . ولكن جلسته لا تكون الا ايجابية حية . اما المسن فيخفض نفسه بعناية وحذر ، كأنه كيس من البطاطس ، ثم يرفعها ، عند النهوض ، بألم ، مستنداً الى ذراعي المقعد ابداً .

كلنا نعرف قاعدة المشي التي تقول : ليكن ظهرك مستوياً ، وكتفاك الى الوراء . ولكن معرفة القاعدة من دون تطبيقها لا تكاد تفيد شيئاً . فطبقها ، اذن ، ترح نفسك من عناء تمرينات رياضية عديدة . ان رجلاً ابيض اللحية ، مستوي الظهر ، يبدو اكثر شباباً من حدث ملتوي الكتفين .





الحركات

قد تكون حركات الشباب كثيرة ملتهبة ، ولكنها دائماً حركات معينة ، معبرة ، واضحة جلية . ولكننا إذ نتقدم في السن نميل لا الى ان نخفف من سرعة حركاتنا وحسب ، بل الى ان نحل محل الحركات ذات المعنى ، نوعاً آخر منها غامضاً لا معنى له .

هذه الحركات التي لا معنى لها ، مثل قضم الاظافر بالاسنان ، والرسم بالاصابع على الارض ، والنقر بالاقدام ، ولمس الوجه ، وغيرها ، تفضح في المرء نقصاً في السيطرة الواعية وافتقاراً اليها . وفي حين أنها قد لا تدل ابداً على الهرم ، فانها تنبىء فعلا بأن الشخص الذي تملكت فيه سيبدو هرماً قبل غيره ، ممن تعلموا كيف يسيطرون على سلوكهم ، بوقت كبير .

لاحظ الطريقة السهلة ، والاهمال البالغ ، اللذين يدخن بهما الشاب لفافته . انه غالباً ما يكون غير واع لها ، فهي من لوازم حديثه . ثم راقب رجلا مسناً يشعل غليونه ، لاحظ كيف يضعه في فمه بهدوء ، وكيف ينحني الى الامام في النهاية ويرمي برماده بطريقة آلية بطيئة ، كأنما انتباهه محصور في هذه العملية وحدها . وليس هذا من التأمل البعيد ، ولا العنـاية القصوى ، في شيء ، وليس هو كذلك تفكيراً في الغليون بأي حال فقد يكون هذا الرجل يستعيد في ذاكرته صورة فتاة ضاربة على الآلة الكاتبة عرفها يوم كان فتى .

ومن الاسباب التي تحتم على النسـاء عدم التدخين انهن ، بوعيهن الشديد للفافاتهن ، وانتباههن الشديد اليها ، يذكرن المرء بعادات المرأة العجوز ، الكثيرة الكلام والجلبة .

وجميع الحركات التي تصبح عادية في الشخص ، ومن ميزاته، تدل على انه قد دخل في سن الشيخوخة . فاذا رأيت شخصاً يضع دائماً يده على انفه وهو يتكلم ، او يطوي منديله وينشره بصورة متتابعة ، فاعلم انه في طريق الهرم قبل الاوان ، والطفولة الثانية انما تحول الشخص الى آلة ، او شبه آلة .

وكذلك فان الحركات باليدين الاثنتين من خصائص الشيخوخة فالشباب نادراً ما يستعملها معاً الا اثناء مباراة في كرة القدم مثلا ، وكثيراً ما تقص متوسطات الاعمار حكاياتهن الطويلة وايديهن ممدودة تقوم بحركات غامضة ، لا معنى لها ، خالية حتى من اغراض التأكيد .

وهز الكتفين ، ابان التكلم ، ايضاً من علامات الهرم ، لانه يدل على ان الغريزة او العاطفة ، لا العقل ، هما المسيطران ، فما يدفع الشيخ ، عادة ، الى عمل ما سوى الانعكاسات الغرزية

الصوت

تستطيع ، غير شك ، ان تعرف مـا اذا كان الشخص الذي يكلمك ، هاتفياً ، شيخاً او شاباً ، حتى ولو كان غريبـاً عنك . ان التغير في الصوت هو من الدلائل الاولى عـلى الشيخوخة ، والسبب في هذا هو اننا اذا لم ندرك كيف يسمع صوتنا الاخرون، لنعمل بعد على السيطرة عليه سيطرة واعية ، فان هـذه السيطرة تخرج من يد العقل الى يد العواطف والانفعالات . فهو عندئذ يرتفع اذ يستولي علينا الغضب ، وينخفض عندما يستحوذ علينـا الانقباض والحزن .

والهمس ، والزفير ، والانين، والغمغمة ، والمد في الكلام ، كلها امارات تنبىء عن الهرم ، لانها لا تصـدر عن وعي . ذلك بان الشيخوخة تتميز بعادات آلية لا تقـع تحت السيطرة . ولو ادرك الشيخ ، وهو في متوسط عمره ، اي خطر يتهدده ، لأصلح من صوته ونبراته ، في ذلك ريب .

والانتعاش والحمية في الصوت من علامات الشباب . فكلما تقدمنا في السن، كنا عرضة لان نزوي تحت اشياء واشياء، وبذلك يحتمل ان يزداد صوتنا ضعفاً وخفوتاً وآلية .

غير صوتك ، ارفعه واخفضه فان هذا يعكس اهتمامك الحي بالاشياء ، هذا الاهتمام الذي هو صفة من صفات الشباب .

يقول الاميركي العادي تحية الصباح بآلة منخفضة تحمل السامع على ان يرغب في سؤاله عما اذا كان يشعر بتعب او صداع . اما الانكليزي فيرفع صوته بهذه التحية ، ويرفع صوته لكل سؤال ليدلك على اهتمامه وشوقه . فكيف تقول انت : « مرحباً » ؟

واذا تكلمت وكان في فمك لفافة او غليون ، فان عضلات شفتك العليا تضمر ، واذا لم تتحرك بحرية كاملة فانك لا تستطيع ان تنطق الكلمات بوضوح . وانا اهديك الى طريقة صالحة لتقويم هذا ، وهي ان تمارس الصفير ، على امل ان لا يكون ذلك في المكتب او الترام ... بل في الحمام !!

واعتقد انه في وسعك الان ، بعد ما تقدم ان تحكم عـلى نفسك ، باخلاص كلي ، ما اذا كنت هرماً ، او شاباً بحق !.

السفياني

من تاريخ المقاومة في الشام

●

بقلم بهيج عثمان

●

ليس انتظار المنقذين امراً غريباً في التاريخ العربي، فقد وجدت فكرة « المهدي » لدى كثير من الفرق الاسلامية، وانتشر الاعتقاد بظهوره اكثر من مرة وفي اكثر من مكان .

ونشأت ، الى جانب عقيدة المهدي ، عقائد اخر ، تبدو اقل قيمة منها واضيق مدى ، كفكرة القحطاني المنتظر ، التي وجدت في زمن ما عند اليمنيين ، والسفياني المنتظر الذي هو مدار كلامنا هنا ، ولكن هذه العقائد لم تكن ضعيفة الاثر فيما لعبت من ادوار وما اثارت من احداث .

فانتظار الرجال المنقذين ، امر مألوف في تاريخنا ، وهو بصيص من امل يشع امام كل حزب مغلوب على امره ، او وسيلة تتعزى بها كل فرقة مضطهدة معذبة ، فيسعى افراد هذه الفرقة واعضاء ذلك الحزب نحو هدفهم ، الى ان يأتي ذلك الشخص العتيد فيعيد لهم المكانة الاجتماعية او السياسية او الدينية التي ينشدونها .

وكانت فكرة « السفياني » في الشام من هذا النوع، ولكنه لا يكفي ان تكون فكرة عادية لتحيـا عند الجماهير وتنمو في نفوسهم ، بل لا بد من ان يصحبها عقيدة دينية تؤيدها وتسندها وهذا ما صاحب فكرة السفياني منذ نشأتها .

اعتقد فريق من اهل الشام ، منذ الربع الاخير من القرن الاول الهجري ، بظهور رجل ينقذهم من دولة المروانيين وظلمهم ، ولم يكن هذا الاعتقاد مجرد امل يحقق او لا يحقق ، بل كان عقيدة مؤيدة بالاخبار، والاصفهاني في كتابه الاغاني يسخر من الذين يقولون بان خالداً بن يزيد هو الذي وضع خبر السفياني، ويتهم راوي هذا الخبر بالخطأ والكذب ويقول : « ان السفياني قد رواه غير واحد، وتتابعت فيه رواية الخاصة والعامة ، وذكر خبر امره ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليهم السـلام وغيره من اهل البيت ، ثم يروي الاصفهاني طائفة من الاخبار يستدل بها على صحة ما يذهب اليه، فيروي عن ابي جعفر محمد بن علي هذا انه سأل عماراً الذهبي : كم تقدرون بقاء السفياني فيكم ، فقال عمار : حمل امرأة تسعة اشهر ، قال : ما اعلمكم يا اهل الكوفة .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، ولم يكتف من يعتقدون بالسفياني بهذه الاخبار ، بل وضعت الاحاديث النبوية ، وفسرت الآيات الكريمة ، على وجه يؤيد خبر السفياني ليقوى الاعتقاد به ويصبح مبدأً دينياً منزلا ، فالطبري في تفسيره لآية « ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت واخذوا من مكان قريب » يقول ، فيما يقول ، : قال رسول الله – ص – وذكر فتنة تكون بين اهل المشرق والمغرب قال : فبينما هم كذلك اذ خرج عليهم السفياني من الوادي اليابس في فوره ذلك حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين ، جيشاً الى المشرق وجيشاً الى المدينة حتى ينزلوا بارض بابل ، المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة فيقتلون اكثر من ثلاثة الاف ويبقرون بها اكثر من مائة امرأة ، ويقتلون بها ثلاثمائة كبش من بني العباس ، ثم ينحدرون الى الكوفة فيخربون ما حولها ثم يخرجون متوجهين الى الشام ..

وعلى هذا النحو من الوصف المثير ، والنقمة البارزة على بني العباس ، وعلى العجم في اشارته الى « المشرق » ثم الى « بابل » المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة، على هذا النحو تسير الروايات والاساطير التي تتحدث عن السفياني .

وفي كتاب « البدء والتاريخ » الذي نعرف فيه الغريب والخارق من الاخبار ، اشارة الى الروايات التي تدور حول السفياني حين يقول « وفيها حشو كثير ومحالات مردودة » .

وبشيء من الملاحظة الخفيفة على سند ذلك الحديث الذي رواه الطبري ، نجد من اسمه « سفيان بن سعيد » ومن يدري ? لعله هو واضع هذا الحديث ...

واستمرت هذه الاخبار الى ما بعد عصر الطبري ، ففي القرن السادس الهجري يردد محي الدين بن عربي حديث الطبري بشكل آخر ، تحت باب « خراب البلاد الذي يكون في آخر الزمــان » ونلاحظ في كل هذه الاخبار المتأخرة ان التحديد التاريخي الزمني لخروج السفياني يتأخر تبعاً لزمن الراوية او الخبر ، فحديث الطبري مثلا يذكر نكبة بني العباس وتخريب الكوفة ، اما ابن عربي ، فمن الطبيعي ان يذكره حسب اعتقاد الناس في عصره ، او حسب ما يرى هو ، فلا يذكر اسماء دول قد ذهبت ، وعوالم قد اختفت ، فانه من السخف ان يذكر شيئاً عن العباسيين وملكهم الواسع ، لانهم اصبحوا في خبر كان ... قبل ان يهزمهم السفياني ...

من اجل هذا ، اجل ابن عربي موعد خروج السفياني الى موعد غامض ، فلم يذكر اعلاماً معروفة ، او حوادث لها اتصال باشخاص معروفين او دول قائمة ، ولم يذكر موعداً محدداً معيناً لخروجه ، بل يقول : في آخر الزمان ... وهي كلمة مطاطة تحتمل كل زمن وترضى كل موعد ...

ومن الطريف في هذه الروايات ان اكثرها يخص مدينة الكوفة بالذكر ويخصها دون غيرها بالتخريب والتدمير ، وافناء اهليها افناء تاماً ، كأن واضع هذه الروايات (او واضعيها) — يريد ان ينتقم ، قبل كل شيء من سكان الكوفة ، الذين عارضوا معاوية وقاوموه او الذين كانوا اعداء له ولاسرته من بعده ، ثم لانهم آووا العباسيين كما آووا العلويين من قبل ، ومن هذه المدينة ايضاً برزت الدولة الجديدة التي قضت على الامويين في الشــام القضاء الاخير .

واستطاع بعض الرواة ان يعينوا المكان الذي سيخرج منه السفياني فقالوا انه سيخرج من ناحية من دمشق يقال لها « الوادي اليابس » بل ذهبوا الى ابعد من ذلك فوصفوا هيأته وشكله فقال البلاذري في انساب الاشراف « وهو — اي السفيــاني — رجل ضخم الهامة ، بوجهه اثر الجدري وبعينيه نكتة بيضاء » .

ويشترط في هذا الرجل المنتظر ان يتصل نسبه بمعاوية بن ابي سفيان ، وان يعمل على احياء عصر معاوية ويزيد .

جر هذا الانتظار الطويل ، والاعتقاد بصحته ، ويلات شتى على الشام ، فكانت حياتها تحت ظل الدولة العباسية سلسلة من الفتن والثورات لا تهدأ الا لتتحفز للنشوب ولا تنطفيء الا لتشعل غيرها ، ومن ثم كرهها خلفاء العباسيين ، فلم يعتنوا بها من الناحية العمرانية ، ولم يعاملوها معاملة بلاد كانت الى حين قريب صاحبة العز والسلطان ومركز الدولة وقلبها . سأل رجل المأمون ان يعنى باهل الشام فاجابه كيف يعنى بهم وبعض قبائلها تنتظر السفياني وخروجه لتكون من اشياعه .

على ان هذه الفكرة ، فكرة السفياني ، لم تكن العامل الاول لكل الثورات التي قامت ضد العباسيين في الشام ، بل قامت ثورات اختلفت اسبابها وتنوعت .

السفياني في العصر الاموي

نشأت هذه الفكرة ، ككل فكرة تشبهها ، من شدة الضغط الذي يصيب الحزب المضطهد ، فاذا اضاع هذا الحزب الحكم والسيطرة ، وخسر الملك والدولة فلا بأس من ان يصور لنفسه هدفاً بعيداً ، يسير اليه رويداً رويداً ، حتى يصل اليه ، فاذا هو لم يصل فسيصل ابنه او احفاده من بعده ، اذ ليس من الضروري ان يكون هذا الهدف قريباً ، سهل المنال ، بل اولى به ان يكون بعيداً يتراءى من وراء الصعاب والعقبات ، ضئيل الحجم باهت الالوان .

وخير للسفيانيين اذا ما وتروا وغلبوا ، ان ينتظروا ، امل الفرصة تسنح والزمن يساعد ، ولكن الانتظار وحده لا يكفي ، فخلقت هذه الاسطورة التي اذا دلت على شيء ، فانهــا تدل على تفكير فريق ضعيف مقهور ، قد خرج الامر من يده ، ولكن بقي في نفسه شيء واحد هو الامل .

متى يكون هذا الامل ! وكيف نشأت هذه الفكرة ?

نعرف ابا سفيان شيخ قريش في الجاهلية ، ونعرف ابنه معاوية والياً على الشام ثم خليفة ، ونعرف ابنه يزيد وابناءه معاوية وخالداً ثم نعرف ما تفرع من معاوية من فروع ، ولكننا لا نعرف ان ثمة فرعاً يلقب بالسفيانية ولم تذكر كتب التاريخ شيئاً عن هذا الفرع يميزه عن غيره في العهد الاول للدولة الاموية .

ويطوي الزمن صفحة من صفحاته ويعلن معاوية بن يزيد « لئن كانت الدنيا مغنماً فقد نلنا منها حظاً ، وان تكن شراً فحسب آل ابي سفيان ما اصابوا منها » ولم يكد يعلن ذلك حتى يصبح هناك طامعون في الحكم ساعون اليه ، من غير هذا الفرع الذي ينتسب الى آل ابي سفيان ، وحتى يرشح مروان بن الحكم ، ويتقدم عمرو بن سعيد ، ويجتمع الناس بعد ذلك في مؤتمر الجابية ، وتعرض هذه

الامماء ويزاد عليها خالد بن يزيد ليمثل الفرع السفياني ، كما مثل مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد الفرعين المرواني والعاصي .

ويتفق المجتمعون على ان يكون مروان خليفة ويليه في الخلافة خالد ، ثم يلي خالداً عمرو بن سعيد . وبفصل خالد بن يزيد ممثل الفرع السفياني عن الحكم تكونت كتلة صغيرة تعرف بالسفيانية ، ليس فيها شخصية قوية ذات اثر بعيد ، حتى خالد بن يزيد نفسه ، كان اذ ذاك فتى لم تجربه الايام ولم يجربها . ولاول مرة يذكر البلاذري عن مؤتمر الجابية « انضمت الى مروان كاب وسائر السفيانية » .

وتشير بعض الروايات في الاغاني مثلا ، الى ان خالداً هو الذي وضع خبر السفياني ، فاذا صحت ، فيكون خالد هو صاحب الفكرة في وضع بذرة العداء بين الفرعين السفياني والمرواني ، ووضع الامل والرجاء امام السفيانيين لينتظروا الوقت الذي يستطيعون فيه ان يمثلوا دورهم على مسرح الحكم .

ولكن سهر المروانيين الدائم ، وقوة الخلفاء الذين قضوا على هذه الفكرة والذين اخفتوا صوتها منذ نشأتها كمروان وعبد الملك والوليد ، ثم ضعف السفيانيين انفسهم ، جعلت هذه الفكرة حلماً خيالياً يخطر على البال بين الحين والحين ، فيداعب النفس ويعزيها .

وحياة هذا الحزب في عهد الدولة الاموية غامض كل الغموض ، ولكن مما ليس فيه شك انه اضطهد اضطهاداً شديداً وشرد رجاله وحبسوا ، حتى اذا اشرفت الدولة الاموية على نهايتها ، نعرف من نبذة قصيرة وردت عارضة عندما تحدث الطبري عن الذين كانوا مسجونين في سجن حران في ايام مروان بن محمد آخر خليفة اموي ، فيذكر منهم ، « ابا محمد السفياني ويقال له البيطـار » وهو احد السفيانيين الذين ادعوا الخلافة في عصر بني العباس . واغلب الظن انه حاول القيام بحركة كهذه في العهد الاموي .

فكأن المروانيين لم يغفلوا ابداً عن السفيانيين ، ولذلك لم يكن لهم شأن قوي في العصر الاموي . ولكن العصر العباسي فسيح واسع امامهم يلعبون دورهم فيه وينتهزون الفرص السانحة .

السفياني في العصر العباسي

كانت عقيدة السفياني في الدولة الاموية موجهة ضد المروانيين ، الفرع الآخر الذي اغتصب الحكم من السفيانيين . ولكن دولة المروانيين سقطت ، وقامت مكانهـا دولة جديدة ، لاتمت الى الاصول الاموية بسبب ، فانتقل موقف السفيانيين العدائي من المروانيين واتجه الى العباسيين القابضين على ازمة الحكم .

وتطور عمل السفيانية : كان عملاً محلياً بين فرع وفرع آخر من قبيلة واحدة ، ولكنه في الدولة العباسية اصبح عقيدة عامة ، تمثل رأي السفيانية ، كما تمثل رأي المروانية ، وبقية فروع بني امية . وهذا طبيعي فان المروانيين اصبحوا مع السفيـانيين في صف واحد ، محكومين مستعبدين ، ليس لهم حول ولا طول ، فمن البلاهة ان يحاربوا المروانيين ، هذا اذا بقيت لهم فاول في الشام في هذا العهد ، اما وقد قضي على اكثرهم ، وهرب الفريق الآخر الى خارج الشام ، حتى وصل الى الاندلس ، ولم يبق في الميدان من الامويين الا السفيانية ، فمن الطبيعي ان يتوجهوا الى هذا العدو الغريب الذي اذلهم وقضى عليهم كلهم .

لم يضطهد العباسيون السفيانية اول الامر ، بل اكرموهم لانهم اعتبروهم معادين للحكومة السابقة ، فتركوهم ، واطلقوا لهم حريتهم ، وقد عرفنا ان ابا محمد السفياني كان في سجن مروان بن محمد في حران فلما قضي على مروان ، اطلق العباسيون سراحه كما اطلقوا سراح جميع المسجونين .

لم تثمر هذه المعاملة الحسنة يقدمها العباسيون للسفيانية ، ثمرتها المنشودة ، ذلك لانهم ، ان اكرموا هؤلاء ، فقد اذلوا الفريق الآخر اذلالاً شنيعاً فاغرقوا واحرقوا ، وقتلوا وذبحوا وانتقموا من الاحياء والاموات على السواء ، ولم تكن هذه الاعمال لترضي عنصراً اموياً ، مهما بالغ في مخاصمته المروانيين ، وعداوته لحكمهم .

طبيعي اذن ان يثور الفرع السفياني ، كما ثار اهل الشام ، الذين ظنوا انهم اذا ايدوا الدولة الجديدة ، او اذا لم يعارضوها على الاقل ، فلن يتغير عليهم الا اسرة مكان اسرة ، ولكن الامر لم يكن كما ظنوا ، فانتقلت العاصمة قلب الدولة من دمشق الى الكوفة ، فكان ذلك تأكيداً لحقد قديم بين دمشق والكوفة واثارة لعداوة نلمحها في اخبار السفياني « الذي سيخرب الكوفة » ، وذهب ذلك العهد الذي كان الخليفة يختار من بينهم ، والولاة في الامصار من قبائلهم .

وما اسرع ما نضجت فكرة عداء العباسيين ، فلم تمر سنة واحدة على ولاية ابي العباس حتى خرج ابو محمد زياد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان بحلب ، ثائراً على الدولة العباسية ، داعياً الى الاموية ، ومطالباً بالخلافة لنفسه . وهكذا اصيب العباسيون بمن احسنوا اليه : اخرجوه من سجن مروان ، فاذا هو بعد ان استرد حريته ، يجمع الجموع حوله ، فيبيضوا ثيابهم واعلامهم ، وتنضم اليه ثورة اخرى قادها ابو الورد احد قواد مروان السابقين ، حتى اصبح الجمع نحواً من اربعين الفاً ، ودعـا الجميع الى ابي محمد

السفياني بالخلافة وقالوا : « هذا هو السفياني الذي كان يذكر » (الطبري عام ١٣٢) .

بقي ابو محمد السفياني مبايعاً اربعين يوماً ، وعسكر هو واتباعه بمرج الاخرم بنواحي « سلمية » وكان اكثر اتباعه من اهل حمص وتدمر وقنسرين .

وبينا هو يهيؤ الامور ويأخذ العدة للهجوم ، يسرع الخليفة ابو العباس ، فيرسل اليه جيشاً ويقود عليه اخاه عبد الصمد بن علي ، وكان هذا الجيش عشرة آلاف رجل ، واضطر عبد الصمد امام قوة السفياني ان يتراجع ، غير ان ابا العباس تداركه بجيش آخر بقيادة عمه عبدالله بن علي ، ولاقاه من شمالي الجزيرة ، ثم دعمه بجيش ثالث عليه حميد بن قحطبة . ولم يكن للسفياني بد ، وسط هذه القوات المتدفقة التي احاطت به وضيقت عليه الحصار ، الا ان يضعف ويتهاون ويخور ، وخاصة حين نقض اهل حمص عهده ، فلم يسرعوا الى نجدته عند ضيقه ، وحين مات قائد ميمنته ابو الورد .

هزم ابو محمد السفياني ، ومزقت جموعه ، وبايع الناس ابا العباس الخليفة العباسي ، وهرب السفياني ومن معه الى تدمر ، ومن ثم تابع سيره متخفياً حتى بلغ الحجاز .

لبث ابو محمد السفياني مدة في الحجاز متخفياً ، بدون ان يظهر دعوته او ينشط لنشرها ، حتى كانت ايام المنصور ، حين علم عامله على الحجاز زياد بن عبدالله الحارثي مكانه ، فبعث اليه خيلاً فقاتلوه حتى قتلوه واخذوا ابنين له اسيرين .

شغر مكان السفياني ولم يخلفه احد ، وقد تزعزعت هذه الفكرة من رؤوس تابعيه الاولين ، بعد ما رأوا من انهزامه ذلك المريع ، ومرت ايام المنصور دون ان يظهر له خلف ، ويرجع ذلك الى سهر المنصور وحرصه على استئصال بذور الفتن قبل نموها ، فكان يختار الولاة من اقربائه ومن امهرهم ، فولى الرشيد ولي عهده والياً على سوريا الشمالية ليتعرف الى الحياة العامة في موطن المعارضة .

وليس بعجيب ان يخلف الرشيد المنصور دون ان يقوم في عهده اي داعية للسفيانية ، ولكن لم يكد الرشيد يترك الامر من بعده للامين ، حتى ظهر سفياني جديد يتصل نسبه بخالد بن يزيد ، وهذا السفياني هو ابو العميطر ، واسمه علي بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية ، وكان هذا عالماً ، راوية للشعر .

خرج ابو العميطر في سوريا الوسطى والجنوبية ، وهي آهلة باليمانيين ، فدعا الى نفسه وقويت شوكته الى ان استطاع ان يعلن ذلك اعلاناً والى ان استطاع اصحابه ان يدوروا في اسواق دمشق تفسها ويقولوا للناس « قوموا بايعوا مهدي الله » .

ولعله رأى ان من الخير ان يجذب اليه فريقاً من العلويين فكان اذا افتخر بنفسه قال : انا ابن شيخي صفين ، يعني علياً ومعاوية ، يريد انه ينتسب لبني امية من جهة ابيه ولآل ابي طالب من جهة امه .

كان ذلك عام ١٩٥ هـ ، وكان اكثر اصحابه من كلب ، وتعصب له اليمانية ، وقاومه القيسية فنهب دورهم واحرقها ، وقتلهم وفتك بأهل دمشق . . .

استطاع ابو العميطر ان يستعين بأحد موالي بني امية ، فقد عاونه الخطاب بن وجه الفلس الذي كان متغلباً على صيدا ، وبذلك استطاع ابو العميطر ان يحتل دمشق وان يطرد عامل الامين عليها « سليمان بن المنصور » بعد ان حصره مدة من الزمن .

وكادت هذه الثورة تنتج نتائج حاسمة لولا ان قبيلة اخرى كبيرة لم يكن يعجبها ان تنتهي الامور الى ما انتهت اليه ، لان سيطرة ابي العميطر السفياني على الشام معناه سيطرة اليمانية ، وانتصار لكلب .

هذه القبيلة التي لم ترض عن الوضع الجديد هي قبيلة قيس ، وليس غريباً ان تقوم قيس بهذه المعارضة ، فقد نبتت بذورها وتجلت في موقعة مرج راهط ، قبل مائة ونيف من السنين ، وبقيت هذه العداوة تظهر وتكمن حسب الظروف واختلاف الاحوال ، ثم هاهي تعود بشكل اصطدام عنيف ، اذ تأبى ان تخضع القيسية لابي العميطر ، فيضطر الى ارسال يزيد بن هشام على رأس اثني عشر الف رجل لقتالهم .

اصبح ابو العميطر بين نارين : يحارب الامين وجنوده من جهة ، ويحارب عدواً داخلياً من جهة اخرى ، فتوزعت قواه وتشتتت جهوده ، فانهزم جيشه الذي ارسله الى القيسية وقتل من اصحابه الفان واسر ثلاثة آلاف ، حتى وهن امره وطمعت فيه قيس بعد هذه الهزيمة المنكرة ، فهرب الى المزة واختبأ بها . وقتل بعد ذلك بأيام .

وبذلك طويت صفحة اخرى من صفحات هذه العقيدة ، وسجل انهزام جديد لهذه الفكرة ودعاتها .

وقد دفع هذا المصير الثوار الذين قاموا بعد ابي العميطر الى عدم ادعاء السفيانية بل كانوا يكتفون بالقول انهم من بني امية ومن نسل اولئك الخلفاء العظام ، كما فعل سعيد بن خالد الاموي العثماني الذي ادعى الخلافة في اول عهد المأمون .

وهدأت الحال بعض الشيء في اواخر عهد المأمون ، الا ان عهده ، على كل حال ، لم يخل من فتن في الشام ، وفترت الدعوة الى السفياني حيناً ، وان لم تفتر معارضة الدولة القائمة . ويمضي المأمون ، ويخلفه المعتصم ، ويوشك ان ينتهي عهد المعتصم ، ويطـول العهد بهزيمة ابي العميطر ، وينساها الناس ، وتضطر الاحداث رجلا يمنياً ايضاً ان يثور بفلسطين اسمه تميم اللخمي ، ويلقب بالمبرقع . وانتقل الى جبال الاردن واعتصم بها وقد وضع في بدء امره برقعاً على وجهه مختفياً من قوات الخليفة العباسي، واتخذ السلم الديني وسيلة ليرتقي بها الى ما يريد من اغراض وغايات ، وصار يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويعيب الخليفة ، وزعم بأنه اموي ، الى ان تكاثف الناس حوله ، وازدادوا زيادة لم تجتمع لاي سفياني آخر ، قال اتباعه « هذا هو السفياني المذكور أنه يملك الشام » ثم استجاب له طائفة من رؤساء اليمانية كابن بيهس الذي كان مطاعاً بين اهل اليمن ورجلين آخرين من اهل دمشق . ولكن اكثر اتباعه كانوا من الطبقات الفقيرة ، وطبقة الفلاحين على الخصوص، التي تشتغل بزراعة الارض وفلاحتها ، واعتماده على هذه الطبقة وحده كاف لتوهين امره واضعافه ، فان هؤلاء الفلاحين سيتركونه وسيتفرقون عنه في اوان الزرع والحصاد .

وهكذا لم تغن عنه هذه المئة الف التي حوله شيئاً ، بعد ان فطن لذلك رجاء بن ايوب قائد الجيش الذي ارسله المعتصم لمقاتلة المبرقع ، فلم يناجزه ولم يقاتله بل عسكر قبالته ، وانتظر حتى جاء اوان الحرث ، وما اسرع ما انفض الفلاحون من حوله ، منصرفين الى ارضهم منبع ثروتهم وحياتهم .

واستطاع رجاء قائد جيش المعتصم ان يناجز المبرقع مع شرذمته القليلة الباقية ، وان يأسره ، وان يحمله الى المعتصم وهو بسر من رأى حيث صلب هناك .

وبالقضاء على المبرقع انتهت آخر محاولة عملية ، تعتمد على القوات المسلحة وعلى الرجال والانصار الكثيرين للدعوة لفكرة السفياني ، اذ لم يقم بعده من يحمل هذه الفكرة ويدعيها ، وكانت له شخصية قوية تستطيع ان تجمع حولها الناس ، بل اصبحت فكرة خرافية، لا يستطيعون ان يؤمنوا بها وان يطمئنوا اليها بعد هذه الهزائم المتتالية ، والخواتيم المخزية التي اصابت كل من قـام بهذه الدعوة من قبل .

وبقيت هذه الفكرة مستترة الى ان زعم رجل في عام ٢٩٤ انه السفياني ، وكان ذلك في خلافة المكتفي بالله ، فحمل هو وجماعته من الشام الى باب السلطان « وقيل انه موسوس » .

واتهام الناس لمن يعتنق هذه الفكرة ، او يقوم بالدعوة اليها في شخصه ، بأنه يسيطر عليه الوسواس والهذيان ، واتهامهم له بعقله ، كان آخر اثر يسجله التاريخ حول وجود شخصية السفياني .

ثم انتقلت فكرة السفياني من هذه الشخصيات التي تتلبس بها الى تأجيل وقت ظهوره، والى ابهام هذا الموعد حرصاً على كرامة الدعوة وخلودها ، وامتداد الامل مع المستقبل ، فاصبحت فكرة مجردة لم تطلق على رجل بعينه ، ولم تحدد بزمن واضح .

واغلب الظن ان بقايا الامويين في الشام وضعوا في القرن الثاني او الثالث ، ملحمة طويلة ، زعموا فيها ، على ما يروي ابن خلدون « انهم يعرفون ما يحدث في المستقبل من الزمان ، والآتي من الايام، من ظهور امرهم ورجوع دولتهم ، وظهور السفياني في الوادي اليابس من ارض الشام ، في غسان وقضاعة ولخم وجذام وغاراته وحروبه ، ومسير الامويين من بلاد الاندلس الى الشام ، وانهم ، على ما ينقل المسعودي ، اصحاب الخيل الشهب والرايات الصفر والنارات والزحوف . . . »

اخفاق « السفياني » واسبابه

بالرغم من هذه الحياة التي عاشتها فكرة « السفيـاني » في الشام في القرنين الثاني والثالث ، وتلك الاطوار التي مرت بها من ظهور واختفاء وقوة وضعف ، فانها لم تصل الى النتيجة التي سعى اليها كل من دعا هذه الدعوة، او كل من تابع ذلك السفياني المزعوم .

وكان من الممكن ان تنجح ما دامت الشام موئل الفتن وموطن المعارضة في ذلك العهد : فالجو ملائم ، والنفوس مستعدة للهياج ، والدولة تمر في اوقات ضعف ، وظروف الانحلال كان في الامكان استغلالها كفتنة الامين والمأمون مثلا ، غير انها لم تكن لتنجح ، ولم تكن لتتغلب لعوامل كثيرة .

لعل ابرز هذه العوامل ، الذين قاموا بالدعوة انفسهم ، والذين حملوا لقب السفياني ، فلم يكن بينهم تلك الشخصية القوية التي تستطيع ان تؤثر في الجماهير تأثيراً عنيفاً ، فتستفزهم الى الثورة وتدفعهم الى الاعتقاد بأن هذا الرجل هو حقاً السفيـاني المزعوم ، فكان السفياني يدعو الى نفسه ، ثم اذا تفرق عنه بعض الاصحاب، خارت عزائمه ، وارتبك ، ولم يجد بداً من الاختفاء او الاستسلام.

ان الضعف في شخصيتي زياد السفياني وابي العميطر كانت العامل الاول في انهزامها . صحيح ان ابا العميطر كان بطـاشاً

والكنه لم يكن في وسعه استغلال هذا البطش لنجاح دعوته ، اما المبرقع فلم يكن سفيانياً في نسبه ، بل زعم ذلك وادعـاه ، وغمز نسبه وحده كاف لاسقاطه من عداد السفيانيين ، وكاف لتفريق اتباعه ، غير انه استبدل بضعف نسبه شيئاً آخر ، انه تنسك ونصب نفسه واعظاً مرشداً ، لعله يستطيع بذلك التعويض عن نسبه الغميز . ويبدو ان المبرقع كان اذكى هؤلاء السفيانيين ، فقد قال بتناسخ الارواح ، ولعله اراد ان يعني ان روح معاوية او يزيد قد تقمصت فيه وحات في جسده . . !

وعلى هذا النحو، كانت شخصيات « السفياني » المختلفة تتراوح بين شخصية ضعيفة العزم كزياد ، او شخصية مجرمة كأبي العميطر، وبين شخصية اخرى مغموزة النسب كالمبرقع اليماني ، او شخصية منحلة ذاهلة كشخصية الموسوس .

وزاد في اخفاق الدعوة، في كل مرة ، اقتصارها على فريق دون آخر من اهل الشام ، وعلى منطقة دون اخرى ، فلم تكن الدعوة مرة ، عامة شاملة لجميع انحاء الشام ، ولم تضم تحتها كل القبائل .

كان مركز الدعوة الى هذه الفكرة ، هو القسم الجنوبي من الشام ، وهو الذي يبتدأ من جنوبي دمشق الى اقصى فلسطين ، غير ان ثورة واحدة من ثورات السفيانيين نشبت في الشمال ، وهي ثورة زياد السفياني الذي قام بها في مطلع العهد العباسي .

وقد دعا الى ظهور هذه الثورات « السفيانية » في النواحي الجنوبية اعتمادها على القبائل اليمنية ، والقبائل اليمنية منتشرة في الجنوب اكثر من انتشارها في الشمال ، فخرج ابو العميطر من دمشق ، وايدته كلب واليمانية ، وقام العثماني في البلقاء وعمان ، وتعصبت له اليمن وثار المبرقع في فلسطين واتبعته رؤساء اليمانية ولخم وجذام وعاملة وبلقين وكلها يمانية . فاذا كان اليمنيون هم الدافع الاقوى للسفيانية ، فطبيعي ان تلازم القيسية الجانب الثاني فتعارض وتفتك بالذين يتبعون السفياني ومن هنا كانت الدعوة الى السفياني محاربة القيسية اولاً ثم الاستقلال عن الدولة العباسية اخيراً ، فنهب ابو العميطر دور القيسية واحرقها وقتلهم ، ويقال ان القرشيين واصحابه من اليمن كانوا يمرون بالدار من دور دمشق فيقولون : ربح قيسي ثم من هذه الدار ، فيضربونها بالنار ، فهرب القيسية من دمشق ، وكان من لم يتابعه سمر عليه بابه .

لم تكن هذه النزعة لتحيا وتنمو في ظل العصبية العنيفة التي وجدت فيها ولا مع التدمير والطغيان والبغي التي رافقتها . وقـد فكر ابو العميطر بكسب شيعة الطالبيـين فادعى انه ابن لشيخي صفين ، ولكنه لم يستطع ان يتقرب من القيسية لان العصبية حادة ، والعداوة مستعرة بين القبيلتين ، وهو لا يمكنه ان يغضب اليمانية ليتقرب من قيس . وقد حاولت القيسية من ناحيتها ان تحاربه بسلاح قريب من سلاحه ، فبايعت مروانياً من بني امية ليحارب ابا العميطر ، وهو مسلمة بن يعقوب من نسل عبدالملك

فهذه القبيلة التي سيطرت على توجيه الدعوة السفيانية كانت من العوامل التي تحول دون ان تصبح عامة شاملة موحدة .

وامام هـذا الضعف المزدوج ، ضعف شخصيات السفياني ، وتحزبهم القبلي ، كانت عين العباسيين تسهر على هـذه الحركات وتراقبها فلا ترسل الى الشام الا العمال الاقوياء ، والا الرجـال العسكريين من قادة وامراء ، ففي هـذه الفترة ، اي في مطلع العصر العباسي كان يتولى على الشام في عهد السفاح عبدالله بن علي عمه ، وفي عهد المنصور صالح بن علي القـائد المشهور ، ومحمد بن الاشعث ، والرشيد نفسه ، وفي ايام الرشيد كان يتوجه الى الشام القائد تلو القائد كموسى بن يحيي البرمكي، وجعفر بن يحيي البرمكي وقد سافر الرشيد بنفسه الى اهل حمص لاخضاع فتنتهم ، ثم كان على الشام في عهد المأمون عبدالله بن طاهر وعبدالله بن صالح ، وفي عهد المأمون طاهر بن الحسين .

من اجل هـذا كله ، لم يكن في وسع فكرة السفياني ان تكون اكثر من فكرة ، فلم تكن عقيدة متأصلة ، ولا مذهباً جامحاً . . . ثم لم تلبث ان اخفقت ولفظت الروح بعد ان عاشت قرنين من الزمن .

هذه اضواء لا تزال خفيفة ، نوجهها الى زاوية من التاريخ العربي مظلمة ، اشتملت على نزعة حاولت الحياة مراراً ، فكانت تصاب في كل مرة بما يمنعها من الاستمرار والقوة (١) .

ربيع عثمان

---

(١) اعتمدنا في هذه الدراسة على المراجع التالية :

تاريخ الطبري .
تفسير الطبري
الكامل لابن الاثير
الاغاني ج ١٦
مروج الذهب للمسعودي .
انساب الاشراف للبلاذري
البدء والتاريخ لابن طاهر القدسي
تاريخ ابن خلدون
محاضرة الابرار لابن عربي



☆

تحت اضواء القمر

•

اذا نظرت عيناك من ُبسط الغمض ... مصابيح « حيفا » وهي باهرة الومض

رأيت السنا لف الدجى .. ورأيتهـــا ... نجوم هزيع قد ُنثرن على الارض

وان جلت بالطرف اللهوح وانت من ... ذرى «الكرمل» الشم الشعاف على نهض

وشارفت ارجـــاء « الخليج » بظاهـــا ... وامواجــه بين التبسّط والقبض

وقطر السنى ينهـــلّ من قمر الدجى ... فيغسل وجه المـــاء بالذهب المحض

تصورته صبحاً .. و « حيفا » وبحرها ... بقيـــة ليـــل عنـــد شاطئه الفضي

بقيـــة ليل قد تجمع نجمهـــا ... مضى الليل عنها .. وهي بالنجم لم تمض !!

حيفا

حسن البحيري

نظرات في التحليل النفسي والكبت

بقلم الدكتور هاني فياض

☆



الانسان بطبيعته وحدة حيوية تشتمل عـلى ظاهرتين متلابستين هما: ظاهرة نفسية واخرى عضوية . وهاتان الظاهرتان تشتركان في تسيير جميع اتجاهاته تحت تأثير عوامل البيئة التي نشأ فيها واستجاب لها منذ طفولته بانفعالات سلبية او ايجابية . وهذه الانفعالات تنطبع في طبقات نفسه بنسبة زمانها ومكانها وتساهم باكبر جزء في تكييف (وحدته الجسمية والنفسية والاجتماعية) . فاما ان يثبت شخصيته الفانية بجهود باقية تعود بالنفع عليه وعلى المجموع معاً ، واما ان ينكمش على نفسه ويقطع الصلة بينه وبين المجتمع الآخذ بالتطور الايجابي فيحيا على هامش الانسانية الجادة العاملة .

ومما لا شك فيه ان البشرية قد قطعت شوطاً بعيداً في الاكتشاف فهيأت للفرد اسباباً عديدة من الرفاهية والراحة والوقاية ولكنها خلقت له جواً كل ما فيه يدفعه الى الاستهتار وعدم الاكتراث فاطلق لغرائزه العنان واستسلم للدوافع السلبية التي يوجهه اليها ضعفه وعجزه عن ادراك حقائق الامور فوقع في هوة من الارتباكات العصبية ووضع نفسه تحت ضغط انفعالي مستمر وذلك لتمسكه باهداب الانحرافات الشاذة ، فازدادت مشاكله وتعددت امراضه المزمنة المستعصية التي لا يستطيع الطب العضوي وحده ان يجدي فيها نفعاً . وعندئذ دعت الحاجة الى خلق المدرسة السيكوسوماتكية (Psyo soma-tique) التي تحدد نسبة اشتراك الارتباكات العضوية والنفسية في الوحدة المرضية ضاربة بنظريات الماضي التي تجعل من الانسان وحدتين منفصلتين عرض الحائط . والواقع ان اكثر العلل لا تخلو من اسباب اولية نفسية تكون اساساً لظواهر عضوية مستقبلة . فاذا اردنا ان نتلمس الاسباب لمعالجتها وجب علينا ان ندخل الى اعمق طبقات النفس فنحللها ونتعرف على ما اندفن فيها من صور وانفعالات ماضية ثم نبرزها لصفحة العقل الحاضر الواعي .

وبما ان الانسان هو ابن بيئته ووليد مظاهر عصره فهو يشكل حتماً مع هذه البيئة وحدة ذات فوهتين مشتركتين في تسجيل نزواته النفسية الغريزية من جهة وما يربط هذه النزوات والدوافع الغريزية بقوانين المجتمع وعاداته من جهة اخرى .

وهنا اود ان احدد بايجاز طبقات النفس وعلاقاتها بالبيئة :

اولاً : الشعور (العقل الظاهر) : « صلة الذات بالعالم الخارجي او قدرة الشخص على معرفة الاشياء الخارجية والتأثير فيها ، ومجموع المميزات لفرد ما في وقت ما » . وهو المراقب الذي يغربل رغبات اللاشعور فلا يسمح الا بظهور ما اتفق منهـا مع انظمة المجتمع وتقاليده .

ثانياً : اللاشعور (العقل البـاطن) : المتكون من الاهواء والرغبات والاختبارات المكبوتة التي لا يمكن ان تصبح شعورية الا بطريقة التحليل النفسي (psychanalyse) . وهو الممر ان لم اقل المنبع الذي منه او من خلاله تنبعث الدوافع الغريزية المشتركة في تقويم اكبر جزء من شخصيتنا واتجاهاتنا الحيوية ، تلك القوى العنيفة الصعبة المراس التي استطيع ان اشبهها بتيارات مائية جارفة

متعددة ، تجري في داخل النفس تفور حيناً فتلغم الشخصية بصورة خطرة ، او تركد وتستنقع احياناً فتنبعث منها الروائح الكريهة والاوبئة النفسية المزعجة . »

ولقد تعددت الاراء في تبويب هذه الغرائز وتحديدها ولكن الاقرب للواقع انها تقسم الى ثلاث اساسية : فالاولى هي : الغريزة الشخصية ، والثانية هي الغريزة الجنسية والثالثة هي الغريزة الاجتماعية . ومن هذه الغرائز الثلاث تنبعث غرائز ثانوية اخرى ، فمن الاولى مثلا تشتق غريزة حب البقاء ثم غريزة الخوف ثم غريزة الهرب التي تمثل السلوك الغريزي لاثبات وجود الغريزة الاولى .

وهذه الغرائز الاولية الثلاث مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً . فالغريزة الجنسية هي كالجوع مثلا دافع شرعي يجب تأديته ولكن بطريقة لا تتنافى مع الغريزة الاجتماعية ، اذ ان الجائع اذا سرق ليأكل يصطدم بالعرف الاجتماعي الواقف له بالمرصاد يسجل عليه عمله المستقل ويحاسبه حساباً عسيراً . وكذلك الغريزة الجنسية فلا نستطيع ارضاءها دون ان نتبع الطرق الاجتماعية الصحيحة خوفاً من تحدي غريزة احترام اوضاع المجتمع .

فاذا ما اصطدمت نزعة غريزية من نزعات اللاشعور مع الشعور ، ذلك لان تلك النزعة لا تتفق مع تقاليد المجتمع الذي نعيش فيه اضطررنا لكبت تلك النزعة في اعماق النفس تحت ضغط نفسي يزداد مع الزمن فيقضي على ما ادخره الانسان من القوى الطبيعية الكامنة في نفسه ويقع في اغلب الاحيان بالذهول الهيستاني (وهو تعبير ينطوي على كثير من الاعراض والامراض النفسية العصبية) .

ولكي نفهم هذه المناورة النفسية ساحاول تقريبها للذهن بما يلي : لنفرض ان مجموع النفس هو عبارة عن بئر :

١ – فسطح الماء يمثل الشعور (العقل الظاهر) حيث يعوم كثير من قطع الفلين التي تمثل ما يجول في داخله من افكار وملاحظات وما يمكن حدوثه من امور حالية .

٢ – وما فوق سطح الماء يمثل الذاكرة واعني كل ما ليس حاضراً في الذهن حالياً ولكن يستطاع احضاره بتداعي المعاني اذا ما دعت الحاجة .

٣ – وكل ما هو تحت سطح الماء وفي عمق البئر يمثل اللاشعور (العقل الباطن) حيث تختبىء الدوافع والانفعالات الماضية التي ازيحت او كبتت في داخله مع مرور الزمن .

لنرجع الآن الى عملية الكبت (Refoulement) التي هي كما ذكرنا ازاحة وحبس الانفعالات النفسية بطريقة لاشعورية في داخل اللاشعور وذلك على اثر صدمة حيوية لم نستطع مواجهتها وتحليلها فاستيعابها ، تحت ضوء الشعور . وهذه الانفعالات تتمثل عند حدوثها بقطع الفلين العائمة لانها تكون وتتبلد على سطح الماء اي في صفحة (العقل الظاهر) . ولكي نستطيع دفعها الى قعر البئر يجب ان نصرف قوة مستمرة تمنعها من الصعود ثانية .

ومن المعلوم ان في داخل النفس قوى عصبية كامنة يستخدمها المرء لمكافحة صدماته العضوية والحيوية اذا ما داهمته الاحداث . وهذه القوى واحدة في جميع البشر ، فمن استطاع استخدام اكبر جزء منها كان هو الرجل المعد لعظائم الاعمال ، ذلك لانه يسيطر بشخصيته المتزنة على الاحداث فيسخرها لارادته . ولقد لاحظ علماء النفس والاطباء ان البشر يقاومون امراضهم بمقدار ما بقي لديهم من هذه القوة (نيروكين) .

فليفرض ان هذه القوة النفسية الكاملة هي (ب) . فاذا ما كبتنا صدمة حيوية لم نستطع مواجهتها كما ذكرنا ، كان علينا ان نصرف قوة عصبية ولنسمها (ج) لحبس تلك الصدمة في داخل اللاشعور . فيبقى لدينا من القوة الكاملة : (ب – ج) . وهذا المقدار لا يكفي في اغلب الاحيان لدرء الضغط الناتج عن الامراض الجسدية العصبية .

واذا ما ازدادت (ج) وتساوت مع (ب) وذلك باستمرار الضغط وتقويته باتجاه سلبي . تنفذ القوة النفسية الكاملة وتتصدع الشخصية تحت تأثير الحياة العادية فيعيش المرء على هامش الحياة ويصبح عرضة لظهور عوارض جسدية ونفسية لا علاقة لها بالصدمات المسببة المكبوتة . كالدمل التي بدلا من ان نشقها ونستأصلها ، نشد على الرباط فتشفى في ظاهرها وهي في الحقيقة ما فتئت تدفع سمومها الى داخل الدم فتبرز باعراض مزعجة وبثور منتشرة في الجسم علامة لخطر مستقبل اكيد ، كالفكرة المحبوسة في داخل النفس والتي تعمل دائماً لاختلال التوازن النفسي العضوي ودفع صاحبها الى العصاب (Psychoneurosis)

والواقع ان الطبيب يقف حائراً لا يدري ما يفعل امام مرض ملك الطب الحديث ناصية شفائه الاكيد بواسطة ما توصلت اليه الكيمياء الطبية ، ولكن متى رجع الى حقيقة الامر يجد ان

قدرة الافراد على مكافحة الامراض هي بنسبة ما بقي لديهم من القوة النفسية الكاملة (Neurokine)

هنا تتجلى مهارة الطبيب النفسي لمعالجة هذه الحالات المستعصية فتنشب المعركة بينه وبين المريض الذي يحاول التشبث بعلته، ذلك لان هذه العلة كانت سبباً لاخراجه من مأزقه الحيوية في وقت وقع فيه بارتباك وقلق نفسي، فخففت التوتر الناتج عنها بطريقة لاشعورية ... وعلى الطبيب المحلل ان لا يكتفي بالتعرف الى الصدمة واسبابها فقط بل يجب ان يرجع الى البيئة التي عاش بها المريض منذ طفولته فيدرس العوامل التي اثرت في تربيته وبناء شخصيته المتفككة المضطربة بتأثير العادات السيئة المكتسبة. وبعدها يحاول ازالة هذه الآثار المعوجة وبناء شخصيته من جديد في ضوء الواقع الايجابي.

دخلت على فتاة في مقتبل العمر غائرة العينين مرتبكة المظهر وقالت بصوت مرتعش: منذ اكثر من سنة اي يوم ابتدأت مهنتي كعازفة على الكمان في احدى الصالات كنت اشعر عند انطفاء الانوار وانبعاث رائحة الدخان في القاعة بخوف ورعشة وخور في اعضائي وضيق في صدري لم استطع كبحها رغماً عن كل جهد بذلته فتفاقمت حالتي حتى اصبت كما ترى بشلل بذراعي الايمن، فوقفت عن العمل. وبعد القيام بالفحص الطبي النفسي اللازم تحققت ان شلل ذراعها لا علاقة له بعلة عضوية ما. بل هو مظهر لصدمة نفسية ماضية مكبوتة. عندها اخذت بدرس مراحل حياتها منذ طفولتها بصبر وجلد حتى توصلت الى النتيجة التالية التي ايدت صحتها والدتها:

في ليلة من ليالي الشتاء القاسية بينما كان والد الفتاة يحاول ضربها انطفأ النور في الغرفة وسقطت سيجارته على سريرها فاشتعلت النار وامتد لهيبها في ارجاء المنزل. ذعرت الطفلة ولكنها اخفت حالتها هذه خوفاً من عقاب الوالد القاسي ودفنت ذعرها الذي انقلب مع الزمن الى انفعال مكبوت، وذلك (بدورة لاشعورية).

وكلما اتفق وجودها بعد ذلك بوضعية مشابهة: اي (ظلام ورائحة دخان) يصعد الخوف من لاشعورها ويحدث لها الاعراض التي ذكرتها والتي لم تلبث ان انقلبت الى شلل في ذراعها، ذلك لان الانسان يميل بطبيعته الى التخلص من الم المعركة النفسية بان يمنع ظهور مصدرها اللاشعوري (الذي يجهله) الى طبقة الشعور مستجيباً باضطرابات عضوية لا تلبث ان تنقلب الى علة متأصلة. والسبب هو انه عندما يواجه وضعية انفعالية لا يجد لها سبيلاً يلتمس طريقة شاذة لان المسالك الشعورية سدت في وجهه ويندفع من تلقاء نفسه نحو الاستجابات الشاذة المرضية.

وعندما بينت للفتاة السبب في انفعالها وحولت وضعيتها اللاشعورية الى الشعورية استعادت اتزانها وشفيت من علتها.

وهناك حالات معقدة يصعب على غير المحلل النفسي الدقيق حلها واعني: حالات القلق النفسي والارتباك المكبوت Anxieté, souci وذلك على اثر حدوث معركة في داخل اللاشعور، قوامها قوتان مختلفتان في الاتجاه. قوة مصدرها اشتهاء امر ما، واخرى مصدرها الخوف من نتائج الاخفاق. فتاة تريد الزواج والحب وتكوين العائلة ككل فتاة ذات اتجاه طبيعي ولكنها عاشت في جهل تام لحقيقة الغرائز الجنسية. فهي تخاف العلاقات الجسدية التي يتطلبها الزواج ولكنها تريد تكوين العائلة فتنقلب المشكلة معها اخيراً الى حالة نيرستينية. وفي عدة حالات يلاحظ الطبيب النفسي ان المشكلة تبتدأ في الشعور وتنتقل فجأة الى اللاشعور لتجد لنفسها المخرج الذي سد في وجهها في الشعور وهنا الطامة الكبرى. وهاكم القصة التالية:

قفز جندي انكليزي من خندقه في الحرب الكونية الاولى الى خندق العدو وقتل ثلاثة من الالمان واحتل مكانهم فاستحق شكر رئيسه ونال الترقية والاوسمة وبعد ذلك بيومين فقط اصيب الجندي المسكين (بالبكم التام) وبعد التحليل الدقيق توصل الطبيب النفسي الى الحقيقة الآتية:

اقدم الجندي على قتل ثلاثة جنود جرحى والقانون الدولي يمنع ذلك فهو يريد اذاً الاحتفاظ بالاوسمة والترقية ويخاف العقاب اذا اكتشفت حقيقة عمله فانتقلت المعركة فجأة من شعوره الى لاشعوره الذي حل المشكلة بالبكم خوفاً من ان يتكلم في حالة السكر او النوم. وعندما شرحها له المحلل واخرجها الى شعوره استعاد الجندي نطقه.

على ان هذه الارتباكات النفسية التي تنعكس على الاعضاء فتحدث اضطراباً في وظائفها قد تستقر وتتحول مع الزمن الى علة عضوية مزعجة يصعب علاجها، فقد يستنجد المريض بطبيبه لشفائه من اعراض مرضية لا يرى الطبيب مبرراً عضوياً لها فلا يعيرها اهتماماً، واذا بالمريض يعود بعد سنة مثلاً وقد تمثلت فيه جميع الظواهر العضوية لما شعر به سابقاً وعندها لا يؤدي العلاج لنتيجة حسنة. ولاثبات ذلك نرى انه اذا اقدمنا على تشريح جثث اكثر المصابين

بالوهم المرضي بعد الموت نجد عندهم كثيراً من التغيرات العضوية استجابة لما كانوا يشعرون به من اعراض وهمية .

دخلت فتاة على احد الاطباء، وطلبت منه طريقة لاصلاح عرج في مشيتها . وبعد الفحص الطبي العضوي الكلينيكي الدقيق وجد ان حالتها لا تمت بصلة الى سبب عضوي ما . ولكنه لاحظ اثراً لجرح مندمل في فخذها الايمن . وعندما سألها عن السبب اجابت : انها اصيبت باصطدام اقعدها في المستشفى مدة شهرين كانت خلالها محاطة بعطف وعناية اصدقائها الكثيرين . وبعد شفائها بوقت قليل ابتدأ العرج .

وقد عرف الطبيب انه بعد ابلالها من جرحها كانت قد عقدت خطبتها على شاب احبته لم يلبث ان تركها بعد مدة وجيزة . فاحدث عمله جرحاً في نفسها او كما يسميه علماء النفس «التجربة المصدومة» شعرت عندها بالوحدة والانقباض وتذكرت عطف اصدقائها وعنايتهم بها يوم كانت مقعدة في المستشفى . فكأن لا شعورها اوحى لها : بانه اذا ما اصبت بعاهة ما تستعيضين عن صدمتك النفسية بما تحتاجين اليه من العطف والالتفات . وهكذا كان.

ولما شرح لها الطبيب حقيقة امرها ، استعادت مشيتها العادية وتابعت سيرها الطبيعي براحة وامل.

ترى مما تقدم ان للانسان طاقة محدودة لتحمل ضغط المعارك والانفعالات النفسية فلا يلبث ان يجد مخرجاً سلبياً يزجه مختاراً بأتون من العصاب psyco - Neurosis فنحن نعيش تحت ضغط مستمر من الموانع الاجتماعية وتعدد الحاجات ال[illegible]بة معرضين انفسنا لشتى الصدمات . ونظرة واحدة على سجل الوفيات يتبين لنا ان خمسين بالماية منها ناتج عن الضغط وارتباك الاوعية الدموية الافرازية اي الاعضاء المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالاعصاب السمبتاوية التي تتأثر مباشرة بالانفعالات العصبية النفسية .

قلت انه لكي نستطيع اعادة التوازن النفسي للمصاب يجب ان نقوّم شخصيته من جديد فنشق له المنافذ ونساعده ليطل على ماضيه البعيد من خلالها فيسعى لاستعادة ذكرياته الماضية . ونستعين على ذلك باحلامه فنربط بينها وبين ما حدث في نفسه من مظاهر ماضية مزعجة مخيفة مخجلة حتى اذا توصلنا الى نقطة الانفعال الاساسية ابرزناها له بصورتها الماضية وطلبنا منه ان يرويها من جديد عدة مرات متتالية لكي يتحقق بان ما استجاب له بحالة شاذة لا يتناسب مع الانفعال الماضي ذلك لان ترديد قصة صدمته الماضية هو عار الان عن عواملها الخارجية الفعلية المزعجة .

وتجارب بافلوف في الاستجابة المكتسبة الشرطية : تثبت لنا شيئاً من ذلك .

اذا عودنا الكلب ان يفرز لعابه عند ما نقدم له قطعة من اللحم مقرونة بقرع الجرس يستطيع ان يفرز في تجربة ثانية ولكن بصورة اخف من الاولى اذا قرع الجرس دون تقديم اللحم ولكنه ينقطع عن الافراز اذا قرعنا الجرس في تجربة ثالثة دون ان نقدم اللحم .

وكذلك المريض « المصدوم المصاب بالعصاب » الذي يكرر سرد قضيته المزعجة الماضية وهي عارية عن عواملها الانفعالية الاساسية يشعر بان قلقه الماضي لا وجود له عندها نحاول ازالة ما انطبع فيه من العادات السيئة التي اكتسبها في طفولته ونبني شخصيته من جديد في ضوء شعوره وبمساعدة مخيلته مستعينين بالايحاء النقي القويم .

وهناك طريقة مثلى اتت بالنتائج الباهرة عند مصدومي هذه الحرب فساعدت الطبيب على استدراج المريض لكشف القناع عن سبب صدمته : وهي تنويه بمادة تدعى : « بنتوثال الصوديوم » مقرونة بنبه عصبي ، فيزول ضغط الشعور عن اللاشعور حيث كبتت الصدمة ويبوح المريض بما يخفيه من عواطفه وانفعالاته . وعندما يثوب الى رشده يكون قد اتصل حاضره الآمن بماضيه المزعج فيردد الطبيب على مسمعه ما باح به وهو في نومه محولاً بذلك مكنونات لا شعوره الى شعوره المدرك، ويساعده على بناء شخصيته مشجعاً اياه على كتابة قصته ومزاولة ما يلذ له من الاعمال الفنية والرياضية فيعود المريض الى حياته العملية بامل وابتسامة .

والحقيقة التي لا مراء فيها هي ان طريقة التحليل النفسي الفرويدي القت ضوءاً جديداً على فن التشخيص والمداواة حين برهنت لنا بان مصدر الارتباكات النفسية وما ينتج عنها من اعراض عضوية هو عهد الطفولة . فلكي نستطيع ان نخلق رجالاً اصحاء الاجسام اصحاء العقول يجب ان نعلم كيف نراعي احساس الطفل لانه مرهف جداً وان نعرف كيف نؤثر على اتجاهاته الغريزية لانه يندفع بسهولة وراء غرائزه . وكيف نوجه خياله الواسع لانه قابل للايحاء . وهذا ما سنبحثه في القريب ان شاء الله . . .

هاني فياض

من فنون الزراعة عند الاقدمين

بقلم
نور الدين بيهم
امين المخطوطات
بدار الكتب اللبنانية

يحاربون حباً في فاكهة الشام

لما انتدب ابو بكر العرب الى فتوح الشام اقبلوا بنسائهم وولدهم وبيوتهم وماشيتهم وسائر ما يملكون وعلى وجوههم سمات الفرح والابتهاج[1] كأنما النصر مستقر في النفوس صرفاً بغير مزاج . ويقال ان الشيوخ الفانية قد قدموا مع اولادهم حتى اذا رآهم ابو بكر ابتدرهم بالسوآل لم تأتون الحرب وليس بكم عزم ولا فيكم بقية؟ فاجابوا : قدمنا رغبة في ثواب الله وحباً في فاكهة الشام واستعذاباً لمائه الزلال[2] .

فواكه بغير اوانها ثمنها وزنها فضة

وكانت اهل بغداد والعرب تتخذ خولهم من اظرف الناس واخفهم نشاطاً ويميلون الى اللهو والطرب ويتفننون في ملذات الطعام الى ان يشتروا الصيد في غير اوانه والثمار في غير ابانها بما يزن مثله فضة[3] ويتمتعون بالذوق في غير طعامهم بما يمضغون من الطيب وورق التنبول الهندي . ويتخذون مقاعدهم في اوان الحر بين الماء المتدفق من صور السباع واشكال الطيور واشكال التفافيح وغيرها وقد اتخذوا في السقوف مراوح لتخفيف وطأة الحر والاستمتاع بما تحدثه من الهواء العليل[4] .

من الهند الى الشام قبل الف سنة

. . . وذلك نحو النارنج والاترج المدور حمل من ارض الهند الى ارض غيرهـا بعد عام الثلثمائة فزرع بعمان ثم نقل الى البصرة والعراق والشام حتى كثر في دور النـاس بطرسوس وغيرهـا من الثغور الشامية وانطـاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر وما كان قبل هذا التـاريخ يعهد ولا يعرف فيها (٥) .

جلب الرياحين من الهند

وكانوا يزينون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين ويقتنون التحف النادرة والاواني الغاليـة ويلبسون حيطان دورهم بالوشي والديباج ويعنون بغرس الزهور في جنانهم حتى انهم ليجلبون لهـا الرياحين من بلاد الهند[6] فيصير من هـذه الجنـان مـا يقوم ثمن البستان بالوف الدنانير[7]

الدميري صاحب كتاب حياة الحيوان

كان كمال الدين الدميري جميل المحاضرة حسن المعاشرة كثير التواضع متودداً الى الناس محبباً عندهم غزير الدمعة معتقداً فيه الخير . وكان في شبيبته اكولاً مفرط النهمة له في ذلك اخبار عجيبة .
اخبر الفقيه العالم صلاح الدين بن الاعمى الحنبلي قال : كنت والكمال الدميري متجاورين بمدرسة الجمالي من القاهرة فجلسنا يوماً نأكل برقوقاً فقلت له لا ترم نواه من ههنا لئلا يقف علينا الذباب ولكن القه هناك . فقال ما رميت قط نوى برقوق ولا خوخ ولا مشمش ولكن آكل ذلك كله بنواه فتعجبت من ذلك . ومر لي زمن فحدثت بذلك صاحبنا ابا الطيب بن القوي المدني فقال لي احدثك عنه باعجب من هذا وهو انه جاور بالمدينة فأكل بحضوري صاع تمر بنواه[8] .

الحاطب يشتغل سبع سنين في ارض خطيبته

لفلسطين في تاريخها الزراعي ماض حافل زاهر ولعلها كانت اول وارقى بلاد زراعية في زمانها او على الاقل وبدون ريب من

---

(١) المقدمة ص ٢٣٢ .
(٢) الواقدي عن حضارة الاسلام ص ٤٨ .
(٣) حضارة الاسلام ص ١١٦ .
(٤) الاغاني ج ١١ ص ٩٩ .
(٥) مروج الذهب ج ١ ص ١٨١
(٦) ياقوت ج ١ ص ٦٨٧ والمسعودي ج ١ ص ١٨١
(٧) الاغاني ج ٥ ص ١١٥
(٨) خزانة جامعة ليدن رقم ١٣٦٦ ورقة ١١٣ عن المشرق ٣٥ ص ١٩٤ – ١٩٥ .

ارقى بلاد الدنيا في زراعتها القديمة .

وكان الفلاح الفلسطيني يستخدم في مزارعه لزراعته اولاده ومماليكه .

وكان من طريف شروط الزواج عند الفلسطينيين ان يخدم الخطيب سبع سنين في حقل زوجته[٩] .

لا تحجز اذا قصر الدائن بدفع ديونه

كان اعتناء الاقدمين عظيماً فيما يتعلق بالزراعة والتجارة والملاحة وقد وضعوا لها اسساً وانظمة بغاية الدقة وكلها تعطف على الفلاح والمزارع على الاخص وتحفظ حقوقه وتساعده على التقدم والنجاح .

ولم يكن يسمح بأي صورة كانت الى مصادرة بعض ادوات الفلاحة والمعيشة (كالمطحنة) « والفرن » والتنور والمعصرة وما شابه اذا قصر الفلاح بدفع دين عليه[١٠] .

ادب يحمل الفاكهة والزهور وبيعها

وكان في الحيرة غلمان يرتزقون من حمل الفاكهة وبيع الزهور منهم حنين بن بلوع الاديب والمغني المشهور[١١] قيل كان لطيفاً في عمل ترتيب الزهور فكان اذا حمل الرياحين الى بيوت الفتيان ومياسير اهل الكوفة واصحاب القيان والمتطربين الى الحيرة ورأوا رشاقته وحسن قده وحلاوته وادبه وخفة روحه اشتروا منه الشيء الكثير[١٢]

الكتابة على التفاح وهو على اغصانه

سبق الشرقيون اهل الغرب الى الكتابة او التصوير على التفاح وهو في اغصانه[١٣] واكثر ما كان يكتب على التفاح الاحمر بالابيض ولهم في ذلك طريقتان : الاولى ان يعمد الى التفاح وهو اخضر قبل نضجه فيكتب عليه بالمداد ويترك الى ان يحمر على الشجرة ثم يمسح المداد فتخرج الكتابة ظاهرة ليس بها اقل حمرة لاستتار ما تحتها عن حرارة الشمس[١٤] .

والطريقة الثانية ان ينقش في الورق ما يراد رسمه او كتابته وتلصق الورقة على التفاحة الصاقاً محكماً وتترك الى ان تنضج الثمرة ويحين قطافها فتنزع عنها الورقة ويظهر ما تحتها اصفر بلون مخالف للون الثمرة لعدم تعرضه لنور الشمس[١٥] .

زرع الاشجار في الشوارع

ولما كان الحر يشتد وهجه في الزوراء ويفتقر اهلها الى رطوبة الماء قل ان يخلو سوق من اسواقهم او بنية من بانيهم من سقاية ولذلك لا يسير فيها الرجل الا محفوفاً بالشجر الزاهر والرياحين[١٦]

ولأهلها في اقامة الاحواض عناية تامة فيرفعون عليها عمداً مزخرفة من الرخام ويعقدون من فوقها قباباً منقوشة بآيات من الذهب وما بينها النقوش الظريفة والرسوم الجميلة . فتوسعوا من اتخاذها للضرورة الى المغالاة بزينتها على سبيل الترف والترفه[١٧] .

تعليل زراعي علمي

يعلل ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي صاحب كتاب مروج الذهب تغير لون الاثمار وطعمها اثناء تكلمه عن فاكهة الهند وثمارها ويقول ان اشجار الفواكه والثمار اذا نقلت من بلادها الى بلاد غيرها عدمت هذه الفواكه والاثمار رائحتها وتغير لونها وطعمها وذلك « لعدم وجود الهواء والتربة والماء وخاصية البلد »[١٨]

الرسوم وكتابة الحكم في الاعشاب

وكانت الخلفاء واعاظم رجال الدولة واغنيائها يعتنون العناية الفائقة في حدائق قصورهم الفاخرة ويجلبون لها من غرائب انواع الزهور والاشجار ما يحير العقول .

وكان لديهم اخصائيون لترتيب اعشاب الحدائق باشكال هندسية دقيقة الصنع جميلة الهندام وكانوا يقرضون العشب بمقراض حتى يكون نبت العشب بالسواء .

ومنهم من كان يكتب الحكم والآيات في الاعشاب في حدائقه وهذا اقصى ما بلغه الذوق الرفيع في الترف وحب الاستمتاع[١٩] .

ولا بد لي قبل ان اختم هذه العجالة ان اذكر ما كانت تقوله العرب عن الزراعة وهو : « اشرف اهل الارض اقربهم اليها » .

نور الدين بيهم

---

(٩) تاريخ سوريا الاقتصادي مطبعة بدائع الفنون ص ٣٣ .

(١٠) Mos 27, 9 من تاريخ سوريا الاقتصادي .

(١١) مشرق ٣٥ ص٢٠٦

(١٢) الاغاني ج٢ ص٣٤٥

(١٣) راجع مشرق جلد ٣٥ ص ٣٢ حبيب زيات .

(١٤) خريدة العجائب لابن الوردي مصر ١٣١٦ ص ١٣٨ .

(١٥) سمر السمار في ليالي الاقمار خزانة اكسفورد ورقة ٢١ حبيب زيات .

(١٦) ياقوت ج ١ ص ٦٨٧ .

(١٧) الاتليدي ٢٢٦ .

(١٨) المسعودي مروج الذهب ج ١ ص١٨١

(١٩) الاحاطة في احوال غرناطة ج ٣ ص ؟ ؟ (سهوت في مذكراتي ان اذكر الصفحة) فعذراً .

قصة

حظوظ الكلاب

بقلم امين يوسف غراب

كانت قاعة جلسات المحكمة الجزائية ضيقة محدودة الجنبات لضيق المبنى الذي اتخذ مقراً للمحكمة في المركز. فهي لا تتسع لا كثر من عدة مقاعد خشبية متآكلة. اقيمت في خطوط مستطيلة امام منصة القضاء الضخمة العالية التي ارتفعت ارتفاعاً عالياً عن ارض القاعة حتى لا يكاد يرى الجالس على المقاعد وجه — دردير — افندي كاتب الجلسة الا بجهد وصعوبة. ولذلك كانت تبدو القاعة في ايام الآحاد من كل اسبوع وهي ايام جلسات الجنح من كثرة الذين يفدون عليها من اهل الريف وترددهم في جوفها، كانت تبدو كجحر النمل الذي على ضيقه يتسع للالوف المؤلفة من اسرابه غير انها كانت في هذا اليوم اشد ازدحاماً واكثر ضيقاً وتبرماً بارلئك الذين اخذوا يتوافدون عليها من الصباح الباكر ويحشدون أنفسهم فيها حشداً ويحشرونها حشراً حتى امتلأت وفاضت فراحوا يتراصون كتلاً عند مداخلها ونوافذها. وكانوا يبدون في اسمالهم البالية ولحاهم التي لم تعمل فيها الموسى من شهور وشعورهم الكث الرث المغبر الذي لم يذق طعم الماء الا في المواسم والاعياد وسحنهم الشاحبة التي اختلطت صفرتها باون الصديد اللزج الذي اكل عيونهم ولم يبق فيها سوى حدقة صدئة باهتة باون قطعة النقود المزيفة. وكانوا يلوحون في ذلك كله فيخيل اليك انك في نهاية الدنيـا وانك امام قوم خرجوا لساعتهم من القبور ينفضون عنهم غبار آلاف السنين التي قضوها في جوف الارض

وكان هرجهم ومرجهم يتصاعد مختلطاً ببعضه بحيث هم لا يسمعون صوتاً او يسمع لهم صوت. في وسط جلبتهم التي هي اشبه بطنين النحل في الخلية. لا تميزه وان كنت تعرفه. ولذلك لم يفطنوا لدردير افندي عندما اقبل عليهم من البـاب الخلفي بطربوشه الكبير الذي بدلت الايام لونه الواحد وحولته الى عدة الوان مختلفة. ونظارته الحجرية البيضاء ذات الاسلاك النحاسية الصدئة التي تدلت على اسفل ارنبة انفه الضخم المستطيل المدبب الذي جثم كالقدر على شاربه الكث الرث الملوث بالسائل المخاطي الذي انساب من منخاره. لم يفطنوا اليه عندما اقبل ولم يلتفتوا اليه الا عندما القى بلفات القضايا الكثيرة امامه على المنصة ثم اخرج منديله (المحلاوي) الكبير ذات الخطوط الثعبانية الزرقـاء وجفف العرق المتصبب من جبينه ثم مسح به منظاره الابيض فتلوث عن ذي قبل وطمسته تلك المادة المخاطية العالقة بالمنديل فغدت زجاجته كالمرآة عندما تطمسها الانفاس الدافئة العابرة. ثم شبك سلكيها في اذنيه وهو ينظر الى الموجودين ويحييهم قائلاً :

- يا فتاح يا عليم — هس يا غنم..

وهنا احسوا به فانكمشوا في جلستهم وانقطع لغطهم فجأة وتعلقت نظراتهم الشاحبة بعينيه وكأنهم يستسمحونه في انفاسهم المتصاعدة من بـين شفتيهم على الرغم منهم. وفجأة فتح احد الابواب ودوى صوت الحاجب مجلجلاً في قلب القاعة — محكمه — فوقف الجميع وقد تعثر منهم من تعثر وسقط منهم من سقط وهو يسرع بالوقوف اجلالا وتعظيما. وامر القاضي بافتتـاح الجلسة في صوت هادىء رزين. واعلن ذلك دردير افندي بصوت اجش مرتفع وعيناه تقذفان الشرر من تحت منظاره الملوث وهو ينظر في غيظ الى القضايا المكدسة امامه. والدوسيهات الكثيرة الضخمة التي غرق فيها حتى طربوشه الاصفر الباهت الذي لم يبق القدر من زره غير فتلات اربع انتثرت فوق قرصه الشاحب هنا وهناك بغير انتظام.

وراح الحاجب ينادي على اصحاب القضايا بصوته التقليـدي ذي الغنة الطويلة والمد والجزر المصطنع وكأنه يجاري عمه محروس بائع الفاكهة المجـاور للمحكمة الذي ينادي على بلحه «الامهات» الحامض ويدفـع عنه اسراب الذباب المتجمعة عليه بمذبته القش المتآكلة وهو يردد مغنياً — صلاة النبي على عيشه وبلـح عيشه. يا ريت يوم الوداع لم كان يا عيشه - وكان الحاجب رغم كبر سنه (وكرشه) المنتفخ المتكور امامه كالمكتل المنكفىء وعيونه الرمضاء التي لا يفتحها الا كلما نادى واذناه الكبيرتان المتدليتسان على صفحتي الوجه كاذني كبش مسن. كان بالرغم من ذلك كله يشكو ضعف حاسة السمع عنده فهو لا يسمع الكلمة الا اذا صبت في اذنيه انصبابا. ولكن لا يظهر الناس على هذا العجز الذي ربما يكون سبباً في اقصائه عن المحكمة بعد اربعين سنة قضاهـا

فيهـا يتمرغ على بابها ويستقبل قاضياً جديداً ، ويودع قاضياً منقولا ويتفرس في وجوه المتقاضين ثم يسقط كالنسر الجارح على الصيد الثمين يمتص دمه ثم يعود متفرساً في وجه غيره الى ان تنتهي الجلسة . لذلك كان يعز عليه حتى مجرد التفكير في الموت فيحرم بذلك من وظيفته التي تدر عليه المال الوفير . ولذلك ايضاً كان يهتم دائماً باذنيه حتى لا يلاحظ احد عليه هذا النقص فيه فكانت له بديهة حاضرة وسرعة خاطر غريبة في التقاط الكلمات ولكنه كان لا يلتقط ابداً الا حروف الاسم الاولى ثم يكمله من عنده وينطقه كيفما يريد ولكنه لا ينطقه على حقيقته ابداً . فمثلا منصور ينطقه (مندور) والمستكاوي ينطقه (المسقاوي) والشافعي ينطقه (الشاذلي) . وهكذا . الا ان هذا كان يثير دائماً حفيظة دردير افندي الذي يعتبره خروجاً على القانون ، وانتهاكاً صارخاً لحرمة اللائحة الداخلية للجلسة . وكثيراً ما كان يسبب هذا خلافاً بينهما يكاد يحتدم ويعكر صفو الجلسة لولا تنبه القاضي الذي يحسمه في الحال بدقات قلمه الرصاص على المنضدة . ولكن هذا الخلاف كاد يحتدم بينهما اليوم ولا تنفع فيه دقات قلم القاضي ولا حتى صرخاته . وذلك عندما طلبت القضية رقم (٧٦) وراح الحاجب ينادي على اسم الشاهد محمد بك السماوي . فنظر اليه دردير افندي من تحت منظاره السميك الملوث مغتاظاً وصاح (السلماوي) ولكن عم جعجع الحاجب لم يسمع وعاد ينادي محمد بك السماوي — وهنا ثار دردير افندي وارغى وازبد وقال وهو يلقي بدوسيه القضية امامه ناسياً مقام القاضي ودقات قلمه الرصاص (السلماوي يا سي جمعه .. فيها — لام — يا سي جمعه) وهنا ادرك عم جمعه خطأه وهم ان ينادي اسم البك صحيحاً لولا ان البك اقبل يتهادى في خطواته الهينة الرزينة . ويمشي الهوينا ، صعر الخد يختال كالطاووس في حلته الغالية تسبقه رائحة عطر جميل متضوع . وتبدو عليه دلائل النعمة الوارفة وتظله عظمة الجاه العريض . ويرتسم على محياه المشرق العطر صلف العنجهية التركية القديمة . يرفع يده بين الآونة والاخرى الى عنقه ليصلح رباط رقبته الاحمر القاني . وليجعل شعاع الماسة الثمينة التي حلى بها خنصره تعبث بالعيون . وما ان اقبل على فناء القاعة حتى راح يلقي بنظرات الاشمئزاز والتأفف حواليه كأنه يؤنب المحكمة التي جمعت بينه وبين هذا القطيع البشري في هذا اليوم الكريه . ثم مثل امام القاضي منشغلاً عنه باصلاح الدبوس الذهبي الكبير الذي زين به رباط رقبته والذي حلاه هو الاخر بقطعة غالية من الماس البراق فغدا الدبوس بما فيه الماسة الغالية يداعب عيون القاضي حتى كاد ينسيه نفسه لولا انه ادرك فحول عينيه متمتماً .

— والله العظيم اشهد بالحق .

— والله العظيم اشهد بالحق .

والقى سعادة البك بشهادته التي تتلخص في ان المتهم — الفلاح — الذي يشتغل في احدى ضياعه ضبط متلبساً بجريمة السرقة . وقبض عليه وهو يخفي في ثيابه (ستة كيزان) من الذرة الخضراء .

والتفت القاضي الى ناحية الشمال فرأى شيخاً في السبعين من عمره يقف متهالكاً على نفسه . يكاد كلما قام تقعده ساقه المرتعشة وتثنيه ذراعه المهزولة المقرورة فلا يسعه الا ان يهمهم بشفتيه وهو ينظر الى اعمدة القفص الحديدية التي التفت حوله وكل آماله ان ان تقوى انامله على القبض عليها لتعينه على الوقوف احتراماً لوقار المحكمة . واخيراً استطاع ان ينهض ووقف على ساقين معوجتين هزيلتين . ولما اعتدل في وقفته اخذ جسده المقرور يصطك داخل قميص من الخيش الخشن حلى صدره بشارة زرقاء مرقومة ٦٢٤٣ غدت هي الاخرى تتأرجح مع خفقان الصدر المكدود المضطرب الذي يعلوه عنق مترهل قد هده الزمن فانحرف عن وضعه الطبيعي ومال بالرأس المحموم والوجه المغضن على الصدر الخافق المضطرب وتأثر القاضي لمنظر الشيخ وراح يتفرس بامعان في سحنته الشاحبة المتوارية خلف لحية كثة كادت شعراتها الملتوية المغبرة تحجب حتى ذلك الشعاع الخافت المنبعث من عينين ضيقتين كأنهما في الوجه المغضن الذي مال به العنق ذبالة مصباح قد نضب ما في جوفه من زيت .

وتأثر القاضي وهو يتفرس في صورة من صور الشقاء امامه ترمز الى بؤس الانسان في الدنيا وتركت في نفسه حسرة كادت تميت عينيه على وجه الشيخ وتنسيه نفسه لولا انه تدارك فقال على الفور .

— ما الذي دفعك للسرقة يا منصور ...

فعمل الشيخ بلسانه في شفتيه المترهلتين المرتعشتين ثم تمتم بصوت كأنه رجع الصدى في جوف الصمت .

— الجوع .

— وكيف سرقت ..

لقد عضني الجوع وانا اسير بين حقل الذرة الذي زرعته بيدي . وتعهدته بعرق جبيني حتى اثمر .. و .... واطرق الشيخ صامتاً .

فقال القاضي وهو ينظر في كتاب كبير امامه .

— وهل يدفع الجوع الى السرقة يا منصور ...

— وان لم يدفع اليها الجوع يا سيدي اتدفع اليها التخمة . .

وارتعدت انامل القاضي وهو يكتب شيئاً بقلمه الرصاص ويقول :

— ولكن من سوء حظك يا منصور ان واضع القانون كان يشكو التخمة دائماً .

ثم ألقى بالقلم وهو يتمتم .

خمسة عشر يوماً مع الشغل والنفاذ . .

وانصرف البك يختال كما اقبل فألفى سيارته الحمراء الفخمة الضخمة الكبيرة تنتظره امام المحكمة . وما ان اقبل عليها حتى طالعه وجه كلبه الوولف الكبير يبصبص له بذنبه . فتقدم منه البك ومسح على رأسه وداعبه قليلاً ثم اخرج من جيبه جنيهاً ناوله الى السائق وهو يقول مشيراً الى الكلب .

— اشتر ثلاثة ارطال من لحم الضأن وقدمها اليه . فقد نتأخر هنا عن موعد الغداء .

القاهرة — امين يوسف غراب

العرب في المهاجر

باسم الحرية — والصراحة — والانصاف

مقدمة كتاب هجرة السوريين واللبنانيين

☆

بقلم توفيق ضعون

من العصبة الاندلسية

انا الفقير اليه تعالى توفيق بن فضل الله بن يوسف ضعون الغساني اصلاً ، الحاصباني جداً واباً ، البيروتي مولداً ، الزحلي نشأة واللبناني تابعية ، البالغ اليوم من العمر اثنين وستين عاماً وشهرين وخمسة عشر يوماً ، قضيت منها في هذا المهجر ثلاثين عاماً وثمانية اشهر ، تخللتها هجرة ثانية الى جمهورية تشيلي دامت ثلاثة اعوام وشهرين ، بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٧ ، اجلس الان الى منضدتي لابدأ في تحبير هذه الرسالة وساعة دير سان بنتو المجاورة تدق مؤذنة بحلول الظهيرة من اليوم الخامس عشر من شهر حزيران سنة ١٩٤٥ مسيحية الموافق السادس من شهر رجب سنة ١٣٦٤ هجرية ، وذلك في مكتبي الكائن في الغرفة رقم ٢ من الدور الثاني من البناء الواقع تحت رقم ١٠٦ من لاديرا بورتو جيرال في مدينة سان باولو حاضرة مميّتها احدى ولايات الاتحاد البرازيلي الجمهوري في القارة الاميركية الجنوبية .

في سنتياغو عاصمة جمهورية تشيلي التي استدعاني اليها انسباء خلصاء انشأت صحيفة اسبوعية اسميتها « الاعتدال » فآل امري فيها الى التطرف لاسباب وعوامل لا فائدة من ذكرها ، كما آل امرها الى الاحتجاب في ختام العام الاول من ولادتها فرحت أذرع تلك الجمهورية المستطيلة الضيقة من وسطها الى شمالها الى جنوبها التماساً الرزق كمتجول تجاري وبائع طيلة عامين كاملين عدت في ختامها الى البرازيل احمل في صدري مرارة الخيبة والى جانبها حلاوة الايمان بمذهب القدرية الذي اعتنقته بعد تفكير عميق خضت عبابه مستلقياً على شاطىء مدينة انتوفاغستا زهاء اربع ساعات يومياً طيلة شهر كامل . والذي عدت به من هذه الرحلة الفكرية الطويلة هو ان كل ما نزعمه من الخطط ضمن دائرة علمنا واختبارنا ونسعى الى تنفيذه بكل ما اوتينا من عزيمة خاضع في سيره ونتائجه لاحكام القدر الذي نجهل كنهه ومقاصده ، وبموجب هذه الاحكام تنعكس احياناً الامور فيصلح الفاسد منها ويفسد الصالح ، وبذلك نتجرد من الفضل في ما احسنّا كما نبرأ من الذنب في ما اسأنا ، ولا يبقى لنا سوى الاعتصام بحسن النية باعتبار اننا كنا في الحالين مسيرين غير مخيرين .

وفي جملة ما يصح عليه هذا الحكم نفسه كتابي هذا وهو كناية عن رسالة عامة شاملة أوجهها باسم المجموع المهاجر الى المجموع المقيم ، متقمصاً شخصية الاول ومعبراً عن رأيه وراسماً منه صورة تنطبق على حقيقته قبل هجرته وفي مختلف مراحلها وادوارها وحوادثها حتى اليوم ، وقد آزرني في اصدارها نفر من مواطنيّ القادرين الذين اسجل لهم فضل ايلائي الثقة المطلقة واكتتاب كل منهم بخمس نسخ يقدمها لاخوانه في احد الوطنين الاصليين او كليهما لكي يطلع عليها هؤلاء الاخوان ويحتفظوا بها كأثر ناطق ينبىء الاجيال المتعاقبة بما كان من جهاد الاسلاف الذين نزحوا الى مختلف البلدان تخلصاً من قيود الفقر والجهل والظلم التي تكبلهم في مساقط رؤوسهم وكانت هجرة امتاز بها مواطنونا على سواهم من الشعوب قاطبة اذ لم يتفق قط لبلاد ان هجرها زهاء ربع سكانها عداً فكانوا في وقت معاً من عوامل فقرها وذلها كما كانوا من دواعي غناها وعزها واستحقوا تبعاً لهذا التناقض شكواها وشكرها .

اما تحديد عدد النسخ المهداة فمصدره رغبتي في وضع العاطفة

القومية فوق الامكان المادي اذ على اختلاف درجات القابلية والسمة ارى المهاجرين متساوين في شعورهم الوطني . والى القراء حكاية الاعداد القدري الذي هيأني لاكون رسول المهاجرين الى اخوانهم المقيمين .

في سنة ١٩٣٢ اصدرت كتاباً اسميته « سيرة حياتي » عوضت به مشتركي مجلة « الدليل » التي كنت قائماً على اصدارها في ذلك العهد عن النصف الثاني من ذلك العام بسبب ثورة حالت شدتها ومدتها دون تمكني من اصدار الاجزاء الباقية في مواعيدها . ولحسن الحظ صادف ذلك الكتاب قبولا وارتياحاً ، لا في هذا المهجر فقط بل في جمهوريتي الارجنتين وتشيلي ومختلف الاقطار العربية كسوريا ولبنان ومصر بدليل ما تلقيته من رسائل التحبيذ من عشرات الادباء الناضجين وما نشرته عشرات الصحف والمجلات في هذه الديار وهاتيك البلدان مما احتفظ به كخير اثر يقيدني بعرفان جميل جميع هؤلاء الاخوان ما حييت . وكم كنت اود ان اعمل بوحي الواجب فانقل ولو فقرات قصيرة من كل رسالة او مقالة او نبذة وردت علي ولكن كثرة المواد وضيق المجال يقضيان علي بالاعتذار عن الاغفال القسري والاكتفاء بايراد نماذج خمسة فيها فوق الكفاية للاعراب عن حقيقة ذلك الكتاب ، وهي فقرات من اربع رسائل لأربعة من فرسان اللغة والتفكير والبيان وكلمة تفصيلية رصينة نشرت في مجلة المقتطف :

الاب انستاس ماري الكرملي – طالعت هديتك فاذا هي غريبة في بابها لانك جرؤت جراءة لا مثيل لها ، اي انك كشفت كل ما في نفسك من المساوى والمحاسن باسلوب بديع يظن القارى انه يطالع رواية خيالية فيستفيد فوائد جمة لا يقف عليها في اي كتاب كان ولا يتعلمها في المدارس التي تنشأ لتخريج الاحداث وانشاؤك في منتهى الحسن والسلاسة وصحة العبارة .

امين الريحاني الملقب « بفيلسوف الفريكه » – حال المرض دون الكتابة اليك قبل اليوم لاشكر لك هديتك اللطيفة الطريفة الشريفة . ولست في النعوت الثلاثة مجاملا : فالكتاب لطيف الطبع والتجليد ، والموضوع طريف لم يسبقك اليه في اللغة العربية على ما اعلم غير طه حسين في كتابه « الايام » . واما الشريفة فانت في ما كتبت خفيف الروح ، دقيق الوصف ، صادق اللهجة ، وهذه المزايا هي من شرف الصناعة بمكان .

موسى بك نمور ، وزير الداخلية سابقاً – وشاقني كثيراً ما وقعت عليه العين من انسجام في العبارة وجرأة في القول الحق وحنين الى الوطن وتعلق باهداب الحكمة وعظة لتقويم الاخلاق . . . واني اشكر لك الحاسة التي اوحت اليك اتحافي بنسخة من مؤلفك القيم لمحت فيها روحك تسيل بين السطور بما فيها من جلاء واشعاع وخفة .

الخطيب العالمي الدكتور حبيب اسطفان – كن على يقين من ان كل قارىء لسيرة حياتك – وعسى ان يكون كل قراء اللغة العربية قراء الكتابك – سيكون لك صديقاً وسيجد في صداقتك لذة ونعمة . وحسبك ان لا يبلغ قارىء آخر سيرة حياتك الا وفي عينه دمعة على زوجتك الروحية ايزابل اوزبورن .

المعلم حنا خباز ، في مجلة المقتطف – وعلى كل حال فهذا الكتاب يضع امام القارىء :

اولا – صورة شاب عاش في اواخر القرن التاسع عشر واوائل هذا القرن في البلاد العربية والمهجر .

ثانياً – صورة للحالة الروحية في سوريا ومصر والسودان .

ثالثاً – يكشف عن الاخلاق واحوال الهيئة الاجتماعية في ميدان واسع النطاق .

رابعاً – يعلن للملأ نفس اديب جميلة فهو سفر نفيس جدير بالمطالعة .

وليتصور القراء انني بعد انقضاء زهاء ثلاثة عشر عاماً على اصداري هذا الكتاب اطالع في جزء كانون الثاني من هذا العام من مجلة الاديب الفقرة التالية من مقال عنوانه « غدنا الادبي » لخليل تقي الدين :

« ويخيل الي اخيراً أننا سننشىء في ادبنا العربي فنوناً جديدة والواناً في الكتابة لم نقبل عليها حتى الان الاقبال الذي تستحقه . ومن هذه الالوان الادبية ادب الاعترافات وهذا الادب متصل اتصالا جد وثيق بالادب الروائي والقصصي أقول ان الاديب العربي لم يكشف حتى الان عن دخائل نفسه ، وحقيقة حياته ، ولم يصور مشاعره ، ونوازع نفسه ، تصويراً صريحاً ، مخلصاً لا خجل فيه ولا استحياء . ذلك لان طبيعته الشرقية تأبى عليه ان يفضي الى الناس بما يعتقده حرماً مقدساً وارى ان الغد سيحمل الينا ادب الاعترافات . وسيكون هذا الادب زاخراً بالحياة . ومن العجيب انك لا تستطيع ان تتعرف الى حياة اديب من ادباء العرب من خلال شعره او نثره . حتى ان الادباء المحدثين ترسموا خطى اسلافهم فاسدلوا حجاباً كثيفاً على حياتهم الخاصة ، وحرموا القارىء من معرفة البيئة التي كونتهم ، والظروف البيتية التي عاشوا فيها وكان لها في ادبهم وتوجيههم اثر . ولو ان ادباء العرب

كتبوا اعترافاتهم ودونوا ذكرياتهم ، لحلت مشاكل ادبية كثيرة وانجلت قضايا عديدة ولاستطاع المؤرخون ان يكتبوا تاريخ الادب العربي على شكل اتم واكمل .

ثم ليقابلوا بينها وبين القوة التي اختتمت بهـا مقدمة كتابي الذي انا بصدده ويعجبوا ما شاؤوا لتوارد الافكار وهي :

« هذه عملية رأيت وقد بلغت الخمسين ان اجريهـا على نفسي لكي لا أظل كسواي من ادباء الشرق سفراً مقفلا لا يتبين منـه الناس سوى ضخامة حجمه وزخرف غلافه، ولعلي متوفق الى الافادة المتوخاة فيتم لي حظ استدراج اعلام الادب العربي الى مثل ما اقوم به ، على ضعة شأني وتفاهة حوادث حياتي . . . »

عدت من تشيلي تائباً عن الصحافة فولجت مضار التجـارة لا بقصد المنافسة والسبق بل التماساً للكفاف ، متجراً بصنف واحـد اجنبي ابيعه من اصدقائي بسعر معتدل يغنيهم عن المساومة ويكفيني مؤونة الالحاف . وظلت الامور سائرة على ما اشتهي حتى اشتدت وطأة الحرب على صناعة ذلك الصنف فراح يتقلص وينذر بالانقطاع فاحتطت للامر وشرعت اصطنع محلياً صنفاً يحل مكانه اذا تحقق يوماً ما كنت اخشاه . على ان المادة الاولية لهذا الصنف الاحتياطي كانت ايضاً اجنبية فلما دخلت اليابان الحرب اشتدت الازمـة على الصنفين وانتهى امرهما الى الانقطاع التـام ، وكانت ثالثة الاثافي صدور مرسوم حكومي يقضي على الصحف الاجنبية بالاحتجاب وهكذا سدت جميع الابواب ، فرحت أصفي ما كان باقيا عندي من الصنفين باسعار ملائمة وافكر تفكيراً جدياً في المستقبل الذي كان يبدو لي مدلهما فلا اهتدي الى مخرج من المأزق الذي اوقعتني فيه الاقدار .

إبان تلك الازمة تهيأ لي دون اي مسعى من جهتي التعرف الى احد كبار الكتاب الوطنيين قادماً من العاصمـة الشاملة ، وعرف هذا الاديب من بعضهم اني صاحب مؤلف يتضمن وصف بلدان عديدة اممتها فأقمت فيها ، واخبار شعوب عايشتهـا وعرفت الشيء الكثير من طبائعها وعاداتهـا ، وسير اشخاص تناولتهم بالدرس والتحليل ونصبتهم مثلا وعبرة ، فنشطني على نقله الى اللغـة البرتوغالية ووعدني بالعون الادبي الى اقصى حـدوده كما مناني برواج لم احلم به عمري . ورأيت من وراء اقتراحه يد القدر تلوح لي بان أقبل فعقدت العزم على التنفيذ ولكن كيف السبيل اليه وانا لم احذق لغة البلاد لا بدرس ولا بمزاولة ، ولكنني تذكرت المثل الانكليزي القائل : « الارادة تشق الطريق » فشمرت عن ساعد العزيمة واستعنت على الترجمة بصديقين من العارفين كان احدهمـا لمروءته وابائه محتسباً والاخر لاحتياجه مكتسباً ، ورحت انقل بيدي الترجمات ، مستعيناً بالالة الكاتبة، واعيد النظر فيها واشذبها وانقحها كما اكتب فصولا اضافية يستسيغها الذوق الاجنبي بمافيها من طرافة ولذة وفائدة حتى فزت بالقصد وطبعت الكتاب ورأيتني يوماً أمام ركام من رزم النسخ استنزف كل مـا كان في جوزتي من مال وفوقه .

اذ ذاك « ذهبت السكرة وأتت الفكرة » كـما يقولون ، لانني لست من المجلين في مضار عرض الكتب وبيعهـا ، واذا انا استوسطت المكاتب لم ترض من الصفقة الا بنصيب الاسد وأجهز المطال على الكسب ورأس المال . وبعد التفكير الطويل فتقت لي الحيلة فرسمت خطة كفلت لي باصابة عصفورين بحجر واحـد اذ اقنعت نفراً من وجهاء الجالية واغنيائها بضرورة وفائـدة تدوين تاريخ هجرة السوريين واللبنانيين الى مختلف البلدان الغربية ، وبنوع خاص الى البرازيل وما انشأوه في هذه البلاد من المشاريع الاجتماعية والتهذيبية والانسانية ، وان كتابي الذي تم طبعه يصلح كتمهيد المؤلف العتيد ، وعلى ذلك تقرر الاكتتاب بعدد من نسخ الكتاب الاول ومثله من الثاني فاكتتب البعض بالحد الاعلى وهو خمسون نسخة والبعض الاخر بالحد الاوسط وهو عشرون وسواهم بالحـد الادنى وهو عشر نسخ ، وكان الدفع كاملا معجـلا فأودعت المصرف كل مـا جمعته ، وبفضل تمرني في الكتاب الاول رحت أنشىء مؤلفي الجديد دون استعانة ولكن بجهد وعناء لا يمكن ان يتصورهما الا من يعانيهما فقـد نقلت الكتاب ونقحته عشر مرات قبل أن اعرضه على المنقح الخبير الذي اخترته ولم يكن لي بد من هذا الاستغناء تفادياً من التشويش الذي يفسد على خطتي الحرة الطليقة فيأتي كتابي مشوهاً ممسوخاً وقد اردته كاملا ملماً .

وبعد جهاد لم يقل مدة وشدة انجزت طبع الكتاب فسلمت منه المقادير المكتتب بها وبعت جل الباقي وكان عملي هذا اساساً لهذه الرسالة التي اضع لها الحدود والقيود التالية :

اولا — الصراحة الى اقصى حدودها باسلوبي المعهود ، ورائدي الحقيقة المجردة دون ان يأخذني عائد من التشفي او الانتقام

ثانياً — ايراد الاسماء مجردة عن الالقاب الا ما كان منهـا مكتسباً او مردوداً الى مهنة او صفة ملازمة ، كأن يكون اللقب ممنوحاً من مصدر رسمي او ان يكون الشخص كاتباً او شاعراً او محامياً او طبيباً او مهندساً .

ثالثاً — سهولة التعبير ادناه للكتاب من جميع الافهام .

لقـد كتبت للتاريخ والتاريخ مشعال نستمده من حوادث الماضي لنستنير به في الحاضر ونبدد بنوره الغياهب التي تحجب عن اعيننا المستقبل ، كما انه مقياس نعلم بواسطته أإلى الامام نسير ام الى الوراء ، فالذي ينسى ماضيه يشبه التائه في قفر مظلم لا يعلم اين هو ولا الى اين يتجه . اني اردت ابقاء اثر يعلم منه ابنـاء المهاجرين واحفادهم حقيقة آبائهم واجدادهم ويرفع في اعين الخلف شأن السلف ، وهذا لا يتم الا برسم صورة حقيقية يتبدى فيهـا للعيان في اي حضيض كان المهاجرون وفي اي سماك اصبحوا بفضل جهادهم المضني المضنك زهـاء نصف قرن ، والا ضاع الفضل وانحطت القيمة .

زد الى ذلك انني لم أخدع احداً ، فجميع الذين استعنت بهم على تحقيق بغيتي سبق لهم ان اطلعوا على كتابي « سيرة حيـاتي » وتأكدوا من صراحتي وأمـانتي في الرواية ، كما اني أبلغت كلا منهم انني انوي كتابة تاريخ منزه لا أثر للخصوصيات فيه ، حتى انه اتى في الواقع خاوياً من اي نسم او رسم ، الا في باب المشاريع العمومية . وقد حبذ الجميع خطتي واكدوا لي انهم قد تعبوا من ذكر الاشخاص وتعظيمهم وملوا النعوت والالقاب التي طالمـا اغدقها الصحفيون والادباء دون حساب على ذوي الاهلية والمجردين منها على السواء . ويكفيني لاثبات ذلك ايراد الفقرات التالية من مقدمة كتابي « سيرة حياتي » :

« وكتمان السيئات وخمول النشأة داء اصيل فينا نحن الشرقيين ونـدر بيننا من لا يستر شقاء ماضيه بنعيم حاضره او يلقي على نقص شبابه فضلة من كمال شيخوخته . اما النقد الصحيح المنزه ، وهو السبيل الوحيد للاصلاح ، فيكاد يخلو منه ادبنا ، اذ قلّ بيننا المنتقدون المخلصون كما ندر من يقرأ انتقـاداً ولا ينسبه الى التحامل الصادر عن عداء شخصي » .

« نحن هنا في مهجر لم يؤمه في الغالب الا كل مظلوم معـدم سعياً وراء الرزق والتماساً للتحرر من اغلال العبودية والفقر ، ومع ذلك ندر ان يرى بيننا المستطلع الا كل من كان سلطاناً في وطنه فاصبح ، اياً كان ، خادمـاً للناس في مهجره فتثور حفيظته على المهاجرين الذين استبدلوا من بهاء العروش هباء القروش بدلاً من ان يغدق عليهم المديح لعلو همتهم وحسن جهادهم وايثارهم جحيم الغربة على نعيم الاقامة في وطن كان ولا يزال للغرباء نعيمه ولابنائه جحيمه » .

« لذلك انا اعجب بالقليلين الذين لا يتكتمون واجلّ الاقل الذين يفاخرون بارتقائهم من نشأة وضيعـة الى منزلة رفيعة بفضل ما بذلوه من تضحيات وما كابدوه من جهد ، وأشفق على الكثيرين الذين يكتمون ماضيهم الخامل فيجردون انفسهم من الفضـل ويعترفون من حيث لا يدرون بانهم على مقاساتهم مضض الغربة وتحملهم مشقة الجهاد عادوا بالنسبة الى اسلافهم القهقرى »

« وممـا اذكره في مجال الافتخار عبرة للمتكتمين ان احدهم تناول يوماً بالتعيير وجيهاً منا اصاب بذكائه وجده ثروة طـائلة ، لغير سبب سوى انه على قول المتحامل من اسرة اشتهرت بالارتزاق من صيد الاسماك ، فجاء الوسطاء جرياً على المألوف ينصحون لذلك المثري الوجيه بان يلقم ذلك المتحامل ما يسكته فأجابهم ان ليس عندي سوى الشفقة ابذلها لهذا الكبير الذي صغر فقام يعيرني لانني كنت صغيراً فكبرت ، والشكر لانه نبهني الى واجب سهوت عنه وهو ان اتخذ تيمناً رسم شبكة او سمكة شعاراً لمحلي » .

ويجمل بكل ذي فكر ثاقب وضمير حي ووجدان صحيح ان يقدر البون بين من يخوض المعركة والمتفرج عليه . لقد فكرت في الموضوع لا اياماً بل شهور ، وعندما جلست للكتابة وجدتني امام الامر الواقع لا مفر لي من التمهيد للتغني بالحسنات بذكر بعض السيئات لانني اكتب لمحيط بينه الكثيرون ممن عاصروا المهاجرين الاولين وشاهدوا بأم العين الحال التي كانوا عليها عند وصولهم الى هذه البلاد وراقبوهم عاملين ورافقوا سيرهم في مختلف ادوار حياتهم حتى اليوم ، فهل في استطاعتي الكذب على شهود عيان ، ولو انا شئته ؟ وهنـاك من عرفوا بالرواية اضعاف ما رويته وطالعوا في الصحف السيارة منشورات ثابتـة على الدهر . ناهيك بان الذين يقولون بالستر يقولون ضمناً بخدع الابناء والاحفاد في حقيقة الآباء والاجداد ، وليس هذا من الشرف والحكمة وصدق العاطفة في شيء .

وليس الفقر والظلم والخلاف الديني من الاسرار حتى عند اقل الاجانب اطلاعاً على شؤون بلادنا ولو انا ارتكبت جريمة كتمان هذه الحقيقة لعدمت الهجرة المبررات ولأثرت على الآباء والاجداد حفائظ الابناء والاحفاد ، لان جميع هؤلاء نشأوا على حب الوطن والبر ، والتضحية الى اقصى الحدود في سبيل سعادة وتحمل مضض الحاجة في ربوعه ، حتى ولو هم افترشوا فيه العراء والتحفوا السماء . اني لو قلت لهم ان آبائهم واجدادهم هجروا وطناً هو آية في جمال طبيعته واعتدال هوائه وعذوبة مائه ، على أنهم كانوا فيه في بحبوحة

وأمن يرفلون بأثواب الصحة وينعمون، كما ترددوا في وصمهم بالمروق ابؤسهم بحق الوطن المقدس عليهم ، وازدرائهم لايثارهم المادة على الروح ، واستجهالهم لاتفضيلهم جحيم الغربة على نعيم الاقامة في الوطن المحبوب الذي فتحوا فيه اعينهم للنور .

اما انكار الظلم فهو اسوأ مصيراً، فهو والخلاص الديني مما اشتهر امره ودونته التواريخ فلا عذر لأحد على جهله ، والاسوأ من ذلك تجاهله واذا قيل ان هذين العاملين اقتصر امرهما على سوريا وكان لبنان الصغير، على الاقل، خلواً منهما كان الخلاف على تحديد الظلم، فالعدل في لبنان القديم كان وقفاً على الاقوياء واصحاب النفوذ دون سواهم من الفقراء العاملين والمرابعين الذين كانوا يقاسون مضض الحرمان ويسامون انواع الذل والهوان وتنزل بهم المظالم على اشكالها ولذلك كانوا في طليعة من هجر . وكم عاد منهم من ثأر لنفسه من ظالميه اذ هو اصبح في غنى عنهم وبدلاً من ان يحتاج اليهم غداً يسلف بعضهم مما كسبه بجده واجتهاده في البلدان الاجنبية . وشذ واحد منهم اذ هو حمل عند عودته هدايا ذات قيمة من اكياس البن البرازيلي خص بأكبرها احد ذوي المقامات والسلطة المطلقة في بلده، زلفى واستعطافاً، وتشرف على الاثر بزيارته مسلماً، يصحبه بعض انسبائه . وما استتب به المقام حتى اوقعه ذهوله في ما لم تنفعه عليه ندامة ولم يشفع به اعتذار، ذلك انه لف ساقاً على ساق، على عادته في هذه البلاد الحرة، فما كان من صاحب الدار الا ان انتهره وطرده من حضرته، غير مراع حرمة الضيافة، ولم يبقه مفاعيل غضب ذلك المتغطرس المستبد سوى العودة على الاثر الى المهجر الذي غادره غير آسف فعاد اليه عودته من مهجر فعلي الى وطنه الاصلي .

اما الخلاف الديني في لبنــان الصغير فلا يصح انكاره اذ هو طالما أدى الى حوادث دامية فاذا قـام اليوم من ينكره التمست له عذراً من جهل الواقع او تقادم عهده بالصورة حتى امحى من ذهنه ما كان يراه فيها من قبح .

ولسنا في كل ذلك امام فروض وآراء تخلقها المخيلات وتنسجها الاهواء بل امام حقائق راهنة لا تقبل النقض . وهذا شأن كل ما دونته واجمع السواد على ثبوته وانما آثر بعض الاخوان لو خــلا الكتاب مما حسبوا توهماً انه يحط من شأننا ويُديل من قيمتنا في اعين ابنائنا واحفادنا والوطنيين والاجانب الذين نعايشهم .

ان لنقطة الابتداء الشأن الاكبر ولا غنى البتــة عن ذكرها اذا نحن شئنا اعطاء من تجاوزها الى السماك الذي هو فيه اليوم حقه من الاعتبار اذ لا فضل على الاطلاق للعظيم الذي ورث العظمة بل الذي ولد صغيراً وبلغ العظمة بجده واجتهاده .

ويجمل بكل من تخطر له المؤاخذة للسبب المتقدم ان لا ينسى ان صاحب الكتاب واحد من المهاجرين وبصفته هذه يناله نصيبه النسبي مما يصيبهم من كرامة او هوان وان سهامه ترتد الى صدره بعد ان تصيبهم . وشتان بين وقع النقد الذي يوجهه الاجنبي في نفس المنتقَد والاعتراف الذي يصدر عن الذات ، وليس من يجهل جمال الاعتراف وترشيحه المعترف للعفو في الشرائع الدينية والمدنية والادبية على السواء . كما ان الاعتراف بالزلات يبرر ذكر الحسنات ويسيغ التغني بها امام الاجنبي ولو كان هذا خصماً عندما يرى انها مسبوقة بذكر الزلات ، والمرء يثبت ما له باعترافه بما عليه ، ولا يعترف بزلاته الا الكبير .

ثم اننا في عصر النور وقد انبلج فجر جديد يبشر بخطوة جبارة تخطوها البشرية الى الامام في طريقها الى مراتب سميا في الارتقاء لا عهد لها من قبل بمثله ، ولا بدع فقد انبثق هذا الفجر الوضاح الجميل على اثر حربين طاحنتين اكتنفت هذه الكرة فيهما ظلمات مدلهمة لا عهد لها بها قبل اليوم ايضاً . فلنغتنم هذه السانحة لننهض من سباتنا الطويل العميق ونخرج من ظلمات الكهوف الرطبة العفنة التي قبعنا فيها اجيالاً متطاولة ونحن مكبلون بقيود التقاليد العقيمة البالية ولنخلع عنا الاسمال التي تنكرنا بها في نظر جميع الشعوب المتمدنة ونرتد حللاً جميلة زاهية نستقبل بها ذلك الفجر وعلى رؤوسنا اكاليل تتلالا بمثل بهائه من الحلى الاخلاقية ، شأن سوانا من الامم السائرة اليوم الى الامام على جثث قتلاها وخائضة انهاراً من دمائهم بين اطلال دارسة من مدنها العامرة الزاهرة التي دمرتها المتفجرات على انواعها واختلاف مصادرها .

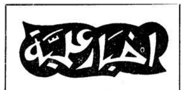
نعم، ليصارح بعضنا البعض الآخر دون وجل ولنغسل بصابون العتاب ادران القلوب فنتصافى ونتآخى ونسير معاً الى الغايات المثلى التي ننشدها في وطننا الاصلي وفي كل مكان نحتله تحت الشمس .

واخيراً ارى من دواعي اغتباطي وافتخاري ان تكون بلادي خالية من آفات الفقر والظلم والتعصب، ولم أود ان يقوم من يثبت ان ما سردته من حوادث الماضي البعيد والقريب لم يكن له اثر الا في مخيلتي .

ليثق قرائي انه لا اشهى على قلبي من ان يثبت الواقع كذبي وتوهمي في كل هذه الحالات، وما اهونها تضحية في سبيل الوطن وفداء عنه . اما الاخطاء التي قد اكون ارتكبتها عن سهو او جهل فاني اسجل سلفاً الفضل لكل من يتكرم بإبداء وجه الصواب فيها، اذ العصمة لله وحده .

البرازيل

توفيق ضعون
من العصبة الاندلسية



مع القنبلة الذرية ..

يقول رئيس جامعة شيكاغو ان القوة الكامنة في الذرة ستوضع موضع الامتحان لعلها تصلح للاستخدام في شفاء السرطان . ويجري هذا الامتحان في معهد جديد انشأته جامعة شيكاغو لتضيف نتائج الابحاث العلمية على المناهج الصحية . وجامعة شيكاغو من المؤسسات التي ساهمت في تركيب القنبلة الذرية وكذلك يعلن موظفو شركة «كيلوغ» التي عملت كثيراً في ابحاث القنبلة الذرية ، ان المعرفة الناجمة عن هذه الابحاث تفتح ميادين جديدة في ابحاث السرطان وتقدم مساعدة عظيمة للصناعة . وقد ذكر هؤلاء المواطنون لاول مرة قائمة عمليات ناجمة عن هذا البحث ستساعد صناعات النفط والكهرباء والغاز والتبريد وكذلك الطب .

وتدور الابحاث اليوم حول قضية اماطة اللثام عن سر القنبلة الذرية ، والمسؤولون في اميركا فريقان ، الاول يقول بوجوب كشف هذا السر ، والثاني ينذر بخطر مروع اذا اتيح له الاعلان . فالعلماء ، على الغالب ، يرون ان من الخير ان تميط الولايات المتحدة اللثام عن سر القنبلة ، وان تعمل على خلق الدولة العالمية او تجازف بحرب مدمرة ، وان على الولايات المتحدة ، يقول رئيس جامعة شيكاغو ، ان تظهر انه ليس في نيتها استخدام القنبلة الذرية وذلك باماطة اللثام عنها ، وهكذا تقضي على كل ريبة .

وكذلك اعلن غروفس رئيس لجنة العلماء التي اشتغلت بالابحاث الذرية ان سر القنبلة وهو اهم سر في العالم ، لا يمكن ان يبقى مكتوماً وان الولايات المتحدة لا تستطيع ان تحتفظ بهذا السر الى سنين عديدة .

اما رجال السياسة فيوجسون خيفة من آراء العلماء هذه ، ويحاولون ان يضعوا تشريعات تملك السيطرة على نشاط الطاقة الذرية في اميركا . فالرئيس ترومان قد وضع مشروعاً للسيطرة عليها ، ولاستخدامها في اغراض سلمية وانسانية وهو مصمم ان لا يقال للدول الاخرى ، اي غير بريطانيا وكندا – كيف تصنع القنبلة .

ووزير حربية الولايات المتحدة يعتقد انهم اذا اساؤوا استخدام المعرفة التي لديهم عن القنبلة ، او قصروا في التقدم بابحاثهم باقصى همة فكأنهم يصدرون حكم الاعدام على مستقبل اميركا والعالم بأسره . وان رغبة كل اميركي ان تستخدم هذه القوة في جعل السلام مضموناً ودائماً ولتوسيع مدى آفاق المعرفة كيما تصبح الطاقة عنصراً فعالاً في اغناء الحياة اليومية .

ويرى وزير الحربية ان المنطق يتطلب ان يرتبوا داخل منزلهم فيما يتعلق بترقية الطاقة الذرية قبل الدخول في مباحثات وقبل اتخاذ قرارات حول ما يجب عمله في الحقل الدولي .

ويريد وزير التجارة في انكلترا مثل زميله الاميركي ، الاحتفاظ بهذا السر ، حتى يتاح لبعض الدول العثور عليه ، ولكنه يقترح استثمار هذه الفترة ، فيقول : علينا في خلال هذه المدة ان نتوصل الى طريقة نستطيع بواسطتها تسوية الخلافات العالمية

والانباء التي تتحدث عن الابحاث الذرية في روسيا ضئيلة لا تعتمد على مصدر وثيق ، ولكن هذا لا يمنع من ان نكون فكرة قريبة من الواقع مما يتحدث به بعض العلماء في اميركا ، او مما يرشح من الاخبار من روسيا نفسها ، والاعتقاد السائد في دوائر اميركا العلمية « ان روسيا تقوم ببرنامج ضخم للابحاث العلمية على نطاق لم تفكر فيه اية امة غيرها ، وان روسيا بعد عشرين سنة سيكون لديها من القنابل الذرية ما يكفي لمحو مدن اميركا وشعبها من الوجود » وهذا الكلام ليس لداعية شيوعي او صحيفة روسية ، وانما قاله الاستاذ بومان عميد جامعة جون هوبكنز الاميركية ...

ومن انباء موسكو ان العلماء الروس رفعوا تقريراً ضافياً طووه على نتيجة التجارب التي قاموا بها للوقوف على المدى الاقصى لقوة الذرات . وتصرح دوائر الكرملين ان النتيجة التي توصل اليها العلماء الروس عظيمة جداً .

ولعل في كلام العالم الفرنسي «بول ريفيت» بعض الضوء عن تطور البحث في روسيا عندما قال : ان الروس والفرنسيين (!) سيستحوذون على سر القنبلة الذرية في غضون ستة اشهر . وذكر هذا العالم الفرنسي ان السوفيات اعتقلوا عدداً من العلماء الالمان كانوا منصرفين الى تجارب خطيرة في هذا الحقل في جزيرة دانمركية ونقلوهم الى الاتحاد السوفياتي ومعهم معداتهم . وختم بول ريفيت كلامه قائلا : ان العلماء يستطيعون ايجاد قنبلة ذرية تفوق قوتها ستمائة مرة القنبلة التي القيت على هوروشيما في اليابان .

وفي اسبانيا كذلك ابحاث مستمرة عن الذرة . بل ابحاث تدعو الى الاهتمام والتتبع ، فقد ادلى ماريشال الجو الاسباني السابق هيريرا الذي لجأ الى فرنسا عندما تولى فرنكو الحكم بتصريحات هامة ، فذكر ان علماء نازيين لاجئين الى فرنكو منهمكون في صنع القنبلة الذرية وليس هذا فحسب بل ان امواج النار الغريبة التي شوهدت مؤخراً في مناطق غرناطة والميريا ، والتي تحدثت الاديب عنها في اخبارها العلمية في عدد سابق ، لم تكن الا تجارب حققها العلماء الهتلريون ، ولا يخفى ان اسبانيا تملك منابع غنية من الاورانيوم . وفي الانباء الاخيرة ان الحكومة الاسبانية وضعت يدها على جميع آبار الاورانيوم في بلادها .

وتسابق الدول المختلفة لاحراز هذا السر العجيب دعا الولايات المتحدة الى ان تواصل ابحاثها لايجاد وسيلة دفاعية ضد القذائف الذرية والظاهر ان هذه الابحاث قد تكللت بالنجاح او كادت ، فقد اعلنت مؤسسة كروسبي للابحاث انها اكتشفت سلاحاً مضاداً للقنبلة الذرية . وذلك بجعلها تنفجر من بعد عدة اميال بدون حاجة الى تحديد مكانها بالضبط ، ويقول اعضاء هذه المؤسسة انه من الممكن نسف القنبلة مع القائمين بتجربتها متى اريد ذلك

وقد رفض الاعضاء الادلاء بأي شيء عن المبدأ العلمي الذي تقوم عليه هذه الوسيلة الدفاعية ، غير ان اللجنة البحرية التابعة لمجلس النواب الاميركي اشارت الى انشاء هذه الوسائل الدفاعية ، وذلك بتفجير القنبلة بعيداً جداً عن هدفها بواسطة الراديو .

اثواب انيقة من المعادن والزجاج

ستشهد المتأنقات في جميع انحاء العالم قريباً جداً منسوجات نفيسة من خيوط معدنية وزجاجية ومن انواع المعجنات المختلفة ، تفوق المنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية وغيرها المعروفة في الوقت الحاضر من حيث الجودة والجمال وغير ذلك من الصفات التي لا تتوفر في اجود الاقمشة الاعتيادية .

وقد وفق الخبراء البريطانيون والاميركيون في انتاج اشكال بديعة من المنتوجات الزاهية الالوان الصالحة الملابس الصيفية والشتوية وفي السهرات الراقصة والاعراس بحيث ان الملابس الحريرية والصوفية وغيرها تبدو ازاءها اقل جمالا وجودة . وليس هذا كل ما في الامر اذ ان هذه المنسوجات الجديدة لا تنكمش بالغسل ولا تتهدل كما ان العث والنار والرطوبة لا تؤثر بها مطلقاً ولا تتغير الوانها بالغسل او بنور الشمس ومدة دوامها اطول من مدة دوام المنسوجات الاعتيادية المعروفة من حريرية او صوفية او غير ذلك . ولعل ابرز صفاتها انها لا تحتاج الى الغسل لتنظيفها من بقع الدهن والاوساخ الاخرى اذ بمجرد مسحها باسفنجة مبللة بالماء والصابون تصبح نظيفة كما كانت في بادىء الامر . ولا تحتاج الى كي على الاطلاق .

وقد اخذت معامل الاحذية والجوارب وحقائب النساء اليدوية تصنع هذه السلع من المعجنات الجديدة المختلفة اذ ثبت بالتجربة انها اجود من البضائع المعروفة والمصنوعة من الجلود والخيوط الحريرية واجمل منها .

نقل الحديث بالراديو والتلفون معاً

في ١٠ تشرين الاول الفائت اعلن في نيويورك سر بقي مكتوماً طول مدة الحرب وهو اسلوب جديد لنقل الحديث بالراديو والتلفون معاً يستخدم الصوت الخفيف ويسمح باربع وعشرين محادثة مختلفة على جهاز واحد للارسال والالتقاط . وقد اوضحت شركة التلفون والتلغراف الدولية عمل هذا الجهاز لجمهور من الصحافيين والصحافيات . وكانت ميزة الامتحان الذي تم امامهم خلو المحادثة من كل اثر للضجيج وقد جرت المحادثة من البداية الى النهاية بمنتهى الوضوح . وفي هذا الجهاز الصغير الحجم انبوبان بشكل مصابيح احدهما يجلب نبرات الصوت والاخر يحللها .

طائرة تقف في الجو

ورد من موسكو ان جريدة برافدا نشرت تفصيلا لطائرة سوفياتية اخترعت اخيراً وهي تسمى « اوميجا » وتحمل راكبين وتستطيع ان ترتفع من الارض عمودياً وتطير في اي اتجاه وتقف في وسط الجو وتنزل في اي مكان . وتستطيع هذه الطائرة ان تقف في الهواء على بعد متر واحد من الارض فينزل الراكب منها بسلم من الحبال . كما تستطيع اخذ راكب من الارض بدون ان تنزل اليها .

واقصى سرعة لهذه الطائرة هي ١٨٠ كيلومتراً في الساعة .

وقال مخترعها وهو يدعى برانوخين ان هذه الطائرة نافعة للغاية وهي تصلح لحمل البضائع والركاب والبريد وان تطير فوق المناطق الجبلية والتي بها غابات ومستنقعات حيث يتعذر وجود المطارات بلا خوف وهي تصلح كذلك لابادة الحشرات في الحقول .

وقد جربت هذه الطائرة جيداً ونجحت جميع التجارب التي عملت بها وقد بدأت المصانع في انتاجها بالجملة .

اشعة الموت

صرح رجال الابحاث في هيئة اركان حرب الجنرال ماك ارثر ان العلماء اليابانيين بدأوا منذ خمس سنوات ونصف في استنباط « اشعة الموت » ولكنهم عند نهاية الحرب لم يصلوا الا الى المرحلة التي يمكن للاشعة فيها قتل ارنب على مسافة ٣٠ ياردة في مدى عشر دقائق .

وكان اليابانيون يعتقدون ان هذا البحث يبعث على الامل بالنجاح الى حد كبير حتى خصصوا مليون ين في عام ١٩٤٥ للعمل على تحسينه ولكن العلماء الاميركيين يرون انه يجب السير شوطاً كبيرا في هذا البحث من ناحيته الفنية قبل ان تصبح اشعة الموت سلاحاً حربياً له قيمته .

والمفهوم ان البحث الخاص باشعة الموت يقوم على اساس المبدأ القائل ان الموجات الاشعاعية القصيرة جدا اذا تجمعت احدثت شعاعاً عظيم القوة له تأثير فسيولوجي على الحيوانات الثديية يودي الى الوفاة .

وقد استعين بالارانب والحمير في التجارب التي اجريت ، وعرض احد القائمين بالتجارب نفسه للجهاز لمدة قصيرة فكان كل ما اصابه هو دوار وتعب استمرا مدة ٢٤ ساعة .

اعظم حاملتين للطائرات في العالم

تم صنع حاملة جبارة للطائرات في احد احواض صناعة السفن في نيويورك وقد بلغت من كبر الحجم بحيث يستحيل مرورها عبر قناة بناما . وسيطلق على تلك الحاملة اسم الرئيس الراحل فرنكلين روزفلت . ولهذه الحاملة توأم اطلق عليها اسم « مداوي » تخليداً لذكرى الانتصار الذي احرزه الاميركيون في المحيط الهادي .

وقد بدأ صنع هاتين الحاملتين منذ عامين على اساس ان تشتركا في الحرب ولذلك ظل امر صنعها طي الكتمان غير ان الاسطول قد اباح الان، وقد تحقق النصر، نشر بعض المعلومات عنها . السفينتان عظيمتان وكبيرتان . وهما في الحجم تعتبران مماثلتين لحاملات طراز « اليسيكس » ولكن تفريغ حمولتها اعظم من تفريغ حمولة الحاملات من طراز اليسيكس بكثير . ويفكر رجال البحرية في استخدام القاذفات ذوات المحركات المزدوجة من سطحي الحاملتين الجديدتين . وسيكون مجموع رجال مدفعية كل حاملة من هاتين الحاملتين متراوحاً بين ١٣٠٠ و ١٤٠٠ رجل . وسيصل مجموع عدد رجالها الى ٤٨٠٠ ضابط وبحار .

في كلمات ...

- قامت المدارس العالية في الاتحاد السوفياتي باعداد ٢٩٠ الف اختصاصي بالابحاث العلمية في مدة الحرب .
- اعلن رئيس شركة اذاعة كولومبيا الاميركية ان شركته قامت باول عملية لنقل الصور الملونة بالراديو من بناية شاهقة الى اخرى في مدينة نيورك والمسافة بين البنايتين عدة اميال . وقد تناول الجهاز اللاقط هذه الصور الملونة « بوضوح عظيم » .
- اعلنت مؤسسة نوبل ان جوائز نوبل في الطب لسنتي ١٩٤٣ - ١٩٤٤ قد منحت لاربعة علماء في الولايات المتحدة منهم ثلاثة اميركيون .
- سافر من سوريا ولبنان عدد وافر من الاطباء الى المملكة العربية السعودية للعمل هناك .
- يعقد المؤتمر الطبي العربي هذا العام خلال عيد الاضحى المبارك في ١٥ تشرين الاول في القاهرة .
- اوفدت الحكومة السورية عشرة اطباء الى الولايات المتحدة للتخصص بفروع الطب المختلفة .



كروم في مصر

للاستاذ احمد رشدي صالح – ١٠٨ صفحات – القاهرة

توالي دار القرن العشرين للنشر بالقاهرة تقديم الكتب القيمة للقارىء العربي فنشرت منذ مدة «مشكلة الفلاح» و «ذكريات مكسيم جوركي» و «كروم في مصر» و «مأساة التموين». وما يتناول من هذه الكتب شؤون الحياة العامة، يقدم للقارىء صورة عميقة التحليل، صادقة التعليل، واضحة الوصف لاوضاع المجتمع والدور الذي لعبته كل طبقة من طبقاته.

وهذا الكتاب، وان كان يحمل عنوان «كروم في مصر» غير انه في حديثه الاخاذ عن ايام الجوع والجلابيب الزرقاء في مهب الاصلاح، والمجتمع المصري بين اثراء الارض وافقار العقول، يقدم للقارىء صورة لبعض جوانب من التاريخ المصري الحديث على نحو علمي تحليلي ونهج قومي رائع، ويبين له ان هذا الشعب لا يختلف في جوهره عن تاريخ اي شعب آخر نكب بالاستغلال الرأسمالي واستبد به الاستعمار. ويوضح الكتاب كيف كان للطبقات الشعبية اوفر الحظ في كفاح المستعمر، وفي المساهمة في النهضة الوطنية.

ان هذا الكتاب، وامثاله، دعامة تقوم عليها نهضتنا الحديثة، وبالرغم من ان كلام المؤلف يتناول مصر وحدها، ويقتصر على حقبة من تاريخها، فان القارىء العربي يشعر ان هذه الامراض مشتركة، تنخر في جسم كل مجتمع عربي، فيتململ الشعب تحت وطأتها ويحاول جاهداً ان يتخلص منها، ومن اجل ذلك يشارك القارىء، لدى قراءة هذا الكتاب، المصري في آلامه وشعوره ورغباته، ويتفهمها احسن فهم لانه يعرفها ويحسها.

مأساة التموين

للاستاذ صادق سعد – ٣٦ صفحة – القاهرة

هذه نظرة علمية قومية يلقيها المؤلف على اسباب مشكلة التموين التي تعانيها الطبقات الكادحة في مصر.

فيرجع تعقد هذه المشكلة الى المضاربة والتخزين، والى قبضة الاستعمار على الاقتصاد المصري، والى الاحتكار، والى بيروقراطية الاداة الحكومية، ثم الى النظام الطبقي في التموين.

ثم يقترح المؤلف علاجاً لهذه المشكلة وذلك بالغاء كل هذه الاسباب ما أمكن، والغاؤها يكون بخطوتين: خطوة اقتصادية وخطوة سياسية تشريعية.

والخطوة الاقتصادية التي يجب اتخاذها تتلخص بمراقبة الحكومة للانتاج، واستيلائها على شركات الاحتكار الكبرى، وتنظيمها للانتاج الزراعي، وتحديدها مساحة الارض التي تزرع قطناً، وسعيها لتحقيق الاستقلال الاقتصادي.

والخطوة السياسية تتناول اشراك الطبقات الشعبية في مراقبة التموين، وتعديل الاجراءات والقوانين التي تعيد الديمقراطية والحرية الى الجميع.

ولكن هاتين الخطوتين لا تتحققان الا اذا حصلت مصر على استقلالها التام.

ويفيض المؤلف بتفصيل كل ما لخصناه تفصيلاً وافياً دقيقاً.

عصر العرب الذهبي

للاستاذ الفيكونت فيليب دي طرازي – ٢٠ صفحة – حلب

عنوان ضخم لكتاب موجز .. ولكنه فهرست شامل عن كل نواحي النشاط الحضاري في عصر العرب الذهبي، اي عصر الرشيد والمأمون، وما وجد فيه من مدارس ومكتبات وترجمة وتأليف، وما اهتم به اهله من تعزيز الفلاحة، وتكريم العلم، ثم بعض المعلومات عن انتشار علم الفلك ورقي الطب، وعناية بالمستشفيات، وانشاء متاحف للحشرات وغير ذلك من طرائف ومميزات امتاز بها هذا العصر.

ما يجب ان لا يجهله كل شاب

تعريب الاستاذ سهيل ادريس – ١١٢ صفحة – بيروت

حظيت منشورات زميلتنا دار العلم للملايين برواج وترحيب قلّ ان تحظى بها منشورات ثقافية عالية باللغة العربية، فقد وجد الجمهور، كما وجد الوسط المثقف، في سلسلتها السيكولوجية حاجته التي ينشدها وغذاءه الذي يرقيه ويدفعه الى الامام، ففيها تعاليم وأسس تبني الافراد، كلاً على حدة، ليتجمع بعد ذلك، مجتمع

قوي واع ، صحيح الفكر ، متماسك الشخصية ، شديد الارادة ، يعرف نفسه ادق معرفة واصدقها ، ويعرف داءها ودواءها …

وقد رأت دار العلم للملايين ان « من تمام ثقافة الاجيال الطالعة ان تتفهم المشكلة الجنسية عن طريق الكتب العلمية » فعزمت على اصدار سلسلة في الثقافة الجنسية تعتمد اوثق المصادر العالمية واصلح الكتب التي وضعها الاطباء المصلحون وقد صدر كتابها الاول « ما يجب ان لا يجهله كل شاب » من تأليف الدكتور ستال وتعريب الاستاذ سهيل ادريس .

وهذا الكتاب يتناول دوراً دقيقاً من ادوار حياة كل انسان، ولكنه لا يزال بالقارىء يعرض امامه اهم مشكلاته ويحللها تحليلاً صادقاً ، حتى يزيل من نفسه الحيرة والتردد ، وحتى يجيب على التساؤلات التي يتساءلها الشاب ولا يدري لها جواباً وحتى يكشف له اسرار العلاقات الجنسية ونتائج امراضها المريعة ، باسلوب صاف وسهل .

ان هذا الكتاب ، والكتب التي تليه من هذه السلسلة، تسد ولا ريب، فجوة واسعة كان الشباب العربي بحاجة ملحة الى تثقيف نفسه بها .

كتب مدرسية

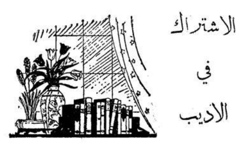
وصل الى مكتبة الاديب خلال الشهر الماضي بعض الكتب المدرسية نوجز الكلام عنها بما يلي :

١) التاريخ بالمحادثة — الجزء الثاني — للاستاذ رشاد المغربي دارغوث ، وهو ذو طريقة جديدة اذ يتناول تاريخ لبنان المعاصر ثم ما قبله الى فجر التاريخ ، ومعروض عرضاً قريباً للافهام في قالب تغلب عليه الروح الوطنية الصادقة ، وفي اسلوب سهل يسير .

٢) المشوق — الجزء الثالث : للاستاذ أ. القتال ، ظهرت طبعته السابعة باسلوب جديد ومختارات للمطالعة تدل على حسن ذوق .

٣) قراءة وقواعد — للاستاذ اديب فرحات في اربعة اجزاء . ظهر منه الجزء الاول ، وهو يدرس العربية على طريقة الجمع بين القراءة والقواعد ، والانشاء والمحادثة في صعيد واحد . والجمع بين هذه الفروع الاربعة هو اقصر الطرق واسهلها لتمكين الطالب العربي من لغته .

الاشتراك في الاديب



لسنة ١٩٤٦

— خفضت قيمة الاشتراك في الاديب فأصبحت كما يلي :
في سوريا ولبنان : ٩ ليرات لبنانية ترسل حوالة بريدية
في الخارج : جنيه مصري يرسل حوالة خالصة المصاريف على احد مصارف بيروت
(وكل حوالة تردنا من الخارج على غير ما ذكرنا تهمل)
— آخر موعد لقبول طلبات الاشتراك في سنة الاديب الخامسة (١٩٤٦) هو اول كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٥
— لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها من شهر كانون الثاني (يناير)
— لا تجدد الادارة اشتراكات لا يطلب اصحابها تجديدها
— كل طلب للاشتراك غير مرفق بالبدل يهمل .
— لدى الادارة مجموعات من الاديب تطلب بالثمن التالي :

السنة الاولى	١٩٤٢	٣٥ ليرة	او ٤ جنيهات انجليزية
« الثانية	١٩٤٣	٢٥ «	او ٣ « «
« الثالثة	١٩٤٤	١٥ «	او ٢ « «
« الرابعة	١٩٤٥	١٥ «	او ٢ « «

ويحسم ٢٠ ٪ لمن يطلب الثلاث مجموعات الاولى معاً

ادارة الاديب : شارع الاحرار ، غربي ساحة الدباس

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب — صندوق البريد رقم ٨٧٨ بيروت — لبنان

جولة الأديب في شهر



مع الشاعر خليل مطران

... كانت عشية من عشايا الخريف ، وبيروت تودّع هذا الصيف القائظ ، وفندق «ريجانت» يحس بنغمة من نغمات الوحي تحط في جنباته ، بينما كانت قمم هذا الجبل وسفوحه تتطلع باللهفة الى الطائر الذي جاءها في مطلع الصيف ، وغناها اروع الغناء ، واعادها الى عهدها بالغناء الساحر والنغم الهادر ، وها هو على اهبة الانفلات من جديد ...

وعجيب امر هذا الجبل ، يبتسم لابنه الزائر ، ويقطب في وجه ابنه المقيم ... كأنما الاغتراب والكدح همّا اللبنانيين ، كتبت عليهم الغربة ، واذا اقاموا لم تضحك لهم القمة ولم يخفق الغصن ولم تزقزق العصافير .

الطائر على أهبة السفر ... فتنادينا في ندوة «الاديب» وسرنا قافلة منسجمة ، في الطريق الى وداعه ... وكان بيننا طائر الخير سيغترب عنا قريب ... طائر غنانا ما غنانا هو الدكتور فياض ...

نحن في الطريق الى فندق « ريجانت » لوداع شاعر الجيل خليل مطران ... ولا ادري لماذا انعقدت الصلة في خواطرنا بين توديع مطران وقرب توديع فياض ...

وحرام ان يفجعنا الزمن نحن ، ونحن بعد في مطلع الصبا ومطل الامل ، بهذين الحادثين العجيبين ...

نحن نود لو استحال الجبل حنيناً على بلابله ، تغنيه فيظلها ... تزرعه فيخصب وتشاركه الخصاب ...

وصاحب « الاديب » في الطريق ، يحمل هموم جهد متواصل يورق في اذهان قراء العربية ويعتم ويكون يباساً في ازقة الورق والفكر المأجور والمال المبذول ، وهو حائر بين رسالة تطالب وبين ظروف لا تعطي .

دخلنا على مطران ، فانتصب انتصاب الغصن ، في الخناة السبعين ، وطفحت على نظارتيه عاطفة وادعة ، واقبل غض اليد التي حركت الحس في الحرف العربي ، وبعثت الحياة في الشعر الميت ...

ويدور الحديث بين فياض ومطران وصاحب الاديب والدكتور سليم حيدر في نقلات ورحلات عبر جيل ولى وجيل بدأت بشائره في دنيانا العربية ...

بينما كان الفنان فروخ ، يعبث بقلم صغير على هامش صحيفة يومية يسوّد بياضها بخطوط حية كانت نواة لرسم مطران ...

وينساق الحديث حول جهادنا نحن في هذا البلد ، واهمال اولي الامر ، قضايا الثقافة الحقة الرابضة في توثبها على القومية الصحيحة ... بينما يرتع اصحاب الادب الرخيص والقلم المأجور في نعيم يمكنهم من مواصلة الدس على ادبنا وقوميتنا في منشورهم واقوالهم ... وهنا ينفض مطران عن منكبيه غبار خمسين حولاً ليقول لصاحب الاديب

— صدقني اذا قلت لك ... لم نكن نحلم منذ خمسين سنة — وهنا امسك بيده عدد « الاديب » الاخير — لم نكن نحلم بأننا سنعيش لنرى مثل هذه المجلة ...

وانطلق مطران مشجعاً ومبدداً للسحب المنعقدة في الجو ... فيقول :

— الاخلاص والكدح والدأب والمواصلة والصبر كل هذه الصفات تؤهل العمل الصادق للصمود والوقوف في وجه الزمن ... لا تيأسوا سيفتر لكم الدهر ، وسيضوع شذى عملكم ... ان ما ترون من طغيان الورق الرخيص الذي يحمل التافه من القول لا يلبث ان يتقلص على



نفسه .. لانه يحمل سر موته معه .. بينما علمكم سيبقى لان فيه مادة الحياة واكسير البقاء . . .

وأخذ يعدد الامثلة طوال نصف جيل . . .

والآن ، وقد ذهب مطران ، نحن اشوق ما نكون الى مطلع الربيع المقبل ، اتراه يبدينا من جديد ، باقة ربيعية ، دائمة الاريج ! . . .

صلاح الاسير

اديب ضاق به لبنان

*

كان لما قلناه ونشرناه في «الاديب» الماضي عن عزم الدكتور نقولا فياض على الهجرة من لبنان، صدى بعيد المدى رددته الصحف العربية في كل مكان بالاسف الشديد والحسرة البالغة ، وقد ضاعف هذه الحسرة وذلك الاسف ان هجرة الدكتور فياض تقع في نفس الوقت الذي تطلب الحكومة فيه من المغتربين العودة الى وطنهم ليفيد منهم وطنهم ! . . .

ومن الكلمات المؤثرة ، تلك التي كتبها الاستاذ خليل تقي الدين في الزميلة « الصياد » نعيد نشرها هنا ليكون قراء الاديب على صلة مستمرة بخير ما ينشر عن اديب وهب نفسه للعربية طبيباً وأديباً وشاعراً وخطيباً . قال الاستاذ خليل تقي الدين :

الى متى يشقى الاديب في لبنان ؟!! الى متى يظل النبوغ والعبقرية مرادفين للفقر والتعب والتفكير في نفقات الغد ؟!

اعلن الدكتور نقولا فياض عزمه على الاغتراب سعياً وراء الرزق .

والدكتور فياض من نعرف ويعرف قراء العربية والناطقون بالضاد .

وهو بعد ليس بالشاب حتى يبدأ حياته في ديار الغربة من جديد .

لكن لبنان قد ضاق به ، ونفس الاديب الابي اكبر من ان تتحمل الهوان في بلد من بلدان الارض ، ولو كان هذا البلد مسقط الرأس ومهوى الفؤاد .

ان رحيل الدكتور فياض عن لبنان مأساة مروعة اذاقتني السهد منذ ايام .

ان هذا الجيل قد افاق على صوت فياض واستيقظ على قصائده وخطبه واغانيه .

ان الكثيرين من كتّاب اليوم وشعرائه كانوا في المهد عندما كان الدكتور فياض يعتلي المنابر فتهتز اعوادها ، وعندما كان يصيح صيحة الحرية والاصلاح فتميد كراسي الطغاة من تحتهم ، يوم كان مجرد الهمس يقود الى السجن والمشنقة !

وامس باع الدكتور فياض كل ما كان يملكه على وجه هذه البسيطة، وما يملكه مكتبة كان يلوذ بها في ساعات الكآبة والحزن وما اكثرها ، واثاث منزل كان يأوي اليه كلما ارهقته هذه الحياة ، وما اكثر ما ترهق الحياة الاديب ،

وجلس على صخرة الوحدة والقنوط يلقي على ماضيه نظرة دامعة ، وعلى حاضره نظرة حمراء ، ويغمض عينه عن مستقبله المختبىء في طيات القدر .

فاذا ماضيه جهاد في سبيل الفكر ، وحاضره اكليل من الشوك يدمي يديه ، في بلد حر مستقل كان في عهد من العهود مأوى الاحرار ، وملاذ الهاربين من وجه الظلم .

ان كل عبقري يغادر وطنه قطعة من الوطن تموت .

ومن العار ان يضيق لبنان بأديبه فياض وهو البلد الذي وسع عشرات الالوف من اللاجئين من اقطار الارض ، وشذاذ الافاق ، والمرتزقة ، والمستعمرين وآواهم وكساهم وأطعمهم واغناهم. ومع ذلك ضاق بعبقري كالدكتور فياض .

ولبنان مع ذلك ، يلهو ويسكر ويرقص ويقامر كل ليلة !

والمال فيه يبذل عن سعة، وينفق عن بطر ، وتلعب به الايدي كأنه الرمل ، او التراب !

حتى الدولة لم تبخل على احد بخيراتها فاعانت ، فيمن اعانت ، الجهال ، والاميين ، والسذج ، والاشرار ، وقلدتهم مناصب العلم، والحكمة ، والادب ، ونسيت فياض !

فيا صديقي فياض !

تراني في هذه الساعة اردد معك قول شوقي ، رحم الله شوقي :

وطني لو شغلت بالخلد عنه   نازعتني اليه في الخلد نفسي

*

احرام على بلابله الدوح   حلال للطير من كل جنس

خليل تقي الدين

مجمل الاحداث السياسية والحربية في شهر

٢٩ ايلول ١٩٤٥ – وجه عبد الرحمن عزام بك الناطق باسم الدول العربية رسالة الى مجلس وزراء الخارجية المجتمع في لندن طلب فيها العهدة بالوصاية على ليبيا الى العرب اذا لم تكن مستقلة .

٢ تشرين الاول – انفض مؤتمر وزراء الخارجية دون ان يصل الى اتفاق على المسائل المعروضة عليه .

٣ – ارسل السيد حمدي الباجه جي رئيس الوزارة العراقية احتجاجاً الى الوزير الاميركي المفوض في بغداد على محاولة المسؤولين في الولايات المتحدة حمل بريطانيا على تأييد الصهيونية في مطالبها

٤ – ابتدأت في باريس محاكمة بيير لافال رئيس حكومة فيشي بتهمة التآمر على سلامة الدولة والتعاون مع الالمان .

٥ – صدر مرسوم ملكي مصري بالغاء الاحكام العرفية ابتداء من ٧ تشرين الاول

استقالت الوزارة اليابانية التي يرأسها الجنرال الامير هيغاشيكوني

٧ – قابل عبد الرحمن عزام بك المستر بيفن وزير الخارجية البريطانية . وكان المستر بيفن قد قابل قبل يومين الدكتور وايزمن رئيس الوكالة اليهودية في فلسطين .

٨ – استؤنفت محاكمة بيير لافال دون ان يحضرها المتهم احتجاجاً ، وقد اعلن محاميه انه هو ولافال لن يحضرا الجلسة . واستمرت المحاكمة غيابياً واستمعت الى بعض الشهود

انتهت اليوم في باريس الدورة الاولى لاتحاد نقابات العمال العالمي الجديد .

ألف البارون شيدهارا الوزارة اليابانية الجديدة .

٩ – اعلنت قيادة الجنرال ماك ارثر ان سلطات الحلفاء قد استولت على احتياطي الذهب والفضة والبلاتين الموجود في اليابان والذي يقدر ثمنه بـ ٢٥٠ مليوناً من الدولارات وستوضع هذه الكمية في اقبية صنع النقود الامبراطورية .

أصدرت المحكمة الفرنسية العليا قرارها غيابياً باعدام بيير لافال مع حرمانه من الحقوق المدنية ومصادرة ثروته .

استقالت الحكومة اليونانية .

١٠ – هاجم عدد كبير من اليهود المسلحين بالبنادق والمسدسات والخناجر معتقل عتليت في فلسطين واطلقوا اكثر من مائتي مهاجر مهرب وقتلوا شرطياً بريطانياً وامرأة مسيحية وجرح كونستبلات عرب .

١١ – اعتقلت الحكومة اللبنانية النائب اللبناني رفعت قزعون بعد ان قبضت عليه ومعه سيارة تحمل سلاحاً حربياً ممنوعاً .

عادت طنجة الى وضعها الدولي السابق بوصول سيدي محمد الطازي مندوب سلطان مراكش .

أضرب العمال في موانيء وارصفة لندن وشلوا حركة العمل .

١٢ – اتخذ مجلس النواب الايراني قراراً بعدم اجراء انتخابات ما دامت القوات الاجنبية مرابطة في البلاد .

نشبت في جاوه ثورة وطنية للتخلص من الاستعمار الاجنبي

أقر البرلمان المصري ميثاق الامم المتحدة الذي وقع عليه في مؤتمر سان فرنسيسكو .

١٣ – احيل النائب رفعت قزعون الى المحاكمة العسكرية اللبنانية بعد ان رفع المجلس النيابي حصانته النيابية .

اجتمع في مصيف الزبداني رئيس الجمهورية السورية ورئيس الجمهورية اللبنانية ورئيسا الوزارتين وبعض النواب وتناول البحث قضية جلاء الجيوش الاجنبية عن اراضي الجمهوريتين وقضية فلسطين .

استقالت حكومة الارجنتين التي يرأسها الجنرال فاريل بعد ان تسلمت انذاراً من قواد الجيش والاسطول . وقد القي القبض على الكولونيل بيرون نائب الرئيس ووزير الحربية .

١٤ – استقال حاكم اندونسيا العام الهولندي ولا تزال الثورة الوطنية مشتعلة .

١٥ – اطلق الجلادون النار على لافال رئيس وزارة فيشي تنفيذاً لحكم المحكمة الفرنسية العليا ، وقد حاول ان يشرب السم قبل الاعدام ولكنه انقذ من الانتحار ثم اعدم بعد ساعتين .

١٦ – عرف اليوم ان السيد رشيد عالي الكيلاني الذي اعلنت حكومته الحرب على الحلفاء ، والذي حكمت عليه الحكومة العراقية بالاعدام ، موجود في المملكة العربية السعودية بعد ان كان في اوربا .

١٧ – بلغ عدد المضربين في الولايات المتحدة من العمال اربعماية وخمسين الفاً .

١٨ – نشر اليوم نص الرسالتين المتبادلتين بين الملك ابن السعود والمرحوم الرئيس روزفلت بشأن فلسطين . ويتبين منهما ان روزفلت وعد الملك ابن السعود بانه لن يتخذ اي قرار بشأن فلسطين بدون استشارة العرب .

١٩ – قابل في لندن عبد الرحمن عزام بك امين الجامعة العربية المستر اتلي رئيس الوزارة البريطانية .

٢٠ – نشبت الثورة في جمهورية فنزويلا .

٢١ – جرت الانتخابات في جميع انحاء فرنسا وكانت النتائج كما يلي :

١٥١ مقعداً للشيوعيين ، ١٤٢ للحزب الكاثوليكي اليساري ، ١٣٩ للاشتراكيين . وبقية المقاعد موزعة على بقية الاحزاب وتعد نتيجة الانتخابات فوزاً لسياسة الجنرال ديغول .

قدم رئيس الوزارة الايرانية استقالته الى الشاه .

٢٤ – وجه الرئيس ترومان رسالة الى الكونغرس يطالب فيها الموافقة على قانون الخدمة الجبرية لمدة سنة واحدة .

اعدم كويسلنغ رئيس الحكومة النروجية في ظل الاحتلال الالماني رمياً بالرصاص .

٢٥ – وافق مجلس النواب العراقي على ميثاق سان فرنسيسكو .

٢٦ – انتحر روبرت لاي وزير العمل في الحكومة الهتلرية سابقاً وأحد المسجلين في قائمة مجرمي الحرب الذين ينتظرون موعد مثولهم في المحكمة الدولية في نورمبرغ .

اجاب الرئيس ترومان على رسالة رئيس الوزارة العراقية بشأن فلسطين واكد له مرة اخرى انه لن يتخذ اي قرار يمس الحالة في فلسطين قبل استشارة العرب واليهود .